# مي زيادة في صداقتها

**بقلم السيدة ودادسكاكيني**

* * *

من أقوال مي : أن الصداقة تزرع الحياة ازهارا . ولقد عرفت مي منذ الطفولة والحداثة صداقة هي أعمق ما في الوجود واصدق ما في الحياة، ولعلها دون غيرها لا تخون ولا تزول ، تلك هي الطبيعة فقد صادقتها « مي » في وحدتها وغربتها طالبة صغيرة في عينطوره بلبنان ، بعيدة عن والديها ، كانت تتجلى في ظلال الشجر ومنسرح النظر الى شطوط البحر وهبات النسيم وخضرة الارض واطلالة الزهر في الربيع ، وكل هذا كان من كلام صديقتها الاولى : الطبيعة في مجاليها ، ومن ها هنا قالت مي كلمتها الشعرية : « ان الصداقة تزرع الحياة ازهارا » .

وقد عرفت مي الصداقة في الطير فكان « كنارها » المحبوب يناغيها وتناغيه في اشعاعة الصباح وفي أنسياب العشايا ، ومن يدري فلعل همسة سحرية من لغة سليمان في مكالمة الطير قد مرت بروح مي وانسربت الى سمعها ولسانها فكانت تفهم ما كان يقول طيرها الحنون « بينما كنت أقرأ وأضحك توقف كناري عن التغريد ، لينظر الي كانه يقول : ايتها الصديقة الكبيرة لماذا تضحكين هكذا ؟ (1) » .

ولما مات الهزار بكته مي وكتبت في رثائه « طائر صغير أحببته شهورا طوالا ، غرد لكآبتي فأطربها وناجى وحشتي فآنسها ، غنى لقلبي فأرقصه ، ونادم وحدتي فملأها الحانا » ولما وصفته قالت :

« امتزج ذكره بحياتي فحل عندي محل صديق » كان طائرا صغيرا نسجت أشعة الشمس ذهب جناحيه وانحنى الليل عليه فترك من سواده قبلة في عينيه ثم سقطت عليه يد البشر فضيقت دائرة فضائه وسجنته في قفص كان عشه في حياته ونعشه في مماته » .

« في الصباح كنت أجلس للدرس والتحبير فتشمئز نفسي أحيانا من عبوس الكتب ويقف يراعي في يدي فيأخذ كناري في الزقزقة والتغريد وتأتي جماعة طير من الخارج فتوحد التغاريد عند نافذتي كما تمتزج الالحان في قلب الامواج ، اذ ذاك تبتسم الافكار على صفحات الكتب امام ناظري ويتمايل قلمي تمايل الصفصاف عند الغدير » .

وصادقت مي الفن ، فكانت الموسيقى والانغام تبادلها حبا بحب منذ تفتحت فيها المواهب وهي طالبة في المدرسة ، فاذا خلت الى نفسها جعلت أصابعها تداعب اصابع البيانو او اوتار العود ، كانت البيضاوات المرصوصة وهي يوزع النغم تلمس بالحنان أنامل مي الفضة التي كانت تشبهها بلونها العاجي ، وأما الاوتار فكانت لديها بمنزلة نياط القلوب ، لقد سمعت مي ترجيع اوتارها وفهمت عنها ما قالت في المودة والسلام ، وما عرفت الموسيقى الا معانيها الانسانية المجردة عن البغضاء والمكايد ، ولا بدع اذا احبتها وتخيلت ان السماء جوقة موسيقية بارعة تعزف من الالحان الربانية ما لم تسمعه من هذه الارض اذن ولم يخطر منه على قلب بشر » .

وقالت : ان الموسيقى لتخاطبني بلغة ليس أقرب منها الى ادراكي وعواطفي ، انها تنيلني أجنحة وتطير بي الى عوالم لا يطرقها غيرها . « اشكرك اللهم لانك فطرتني على حب الموسيقى والجمال » (2) .

وحين أدركت مي أن الانسان لا يستطيع أن يعيش وحده ، وان صداقته لغير الانسان لا تشبع مزاجه ولا ترضي طبيعته واهدافه فتحت قلبها وبيتها للصداقة والاصدقاء ، فذكرتني بنابغة القلم واللسان ابي حيان التوحيدي الذي وقف كتابا من أعز كتبه واغناها بالفكر والفلسفة على موضوع الصداقة والصديق .

وأبو حيان نفسه وقع فيما وقعت فيه « مي » من الايمان بالصداقة حتى كفر بها مثلما كفرت بعد حين ولو أنهما معا تذكرا قول الشاعر :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذعوى وصوت انسان فكدت أطير

لانكر كل منهما على حداثة التجارب والسن فكرة الصداقة والصديق ، ولو عللنا محنة مي وحللنا اسبابها لوجدنا خلو قلبها من الصداقة والصديق بعد أن امتلأ بهما ، هو من جملة الاسباب في تلك المحنة ، فكأي من غني افتقر فتمنى الموت في حال فقره ، وكم من امرأة وقفت امام المرآة فجعلت تعد سنيها وتتأمل في وجهها وهي تذكر شبابها فتمنت الموت ، واما الملوك والكبراء فكم أوصى الحكماء بان نرحمهم بعد عز ومجد ، فمن لمي بعد ندوتها العامرة بالصداقة والاصدقاء وامتلاء قلبها بالاحزان بعد وفاة امها وكانت لها الصديقة الصادقة التي استأثرت بها واعدتها لحياة دلال لا تعرف الكفاح .

وربما لم تسعد امرأة في حياتها بالصداقة مثلما سعدت مي بأعز الوانها وبأرقى الاصدقاء ــ والصديقات مكانة وفكرا ، ويقول الذين عرفوها انها كانت ترعى حق هؤلاء ، وتقدر تقاليد المجتمع تجاه صديقاتها من غير ملتها ، على اني لا استطيع أن أجد هذه الصداقة جديرة بالتخليد لانها انفضت عن مي حين ادركتها المحنة ، وانقلب ذلك الود الى اشفاق عليها من بعيد ، ورثاء لمصيرها ، ولو قدر لها ان تكتب خواطرها في عزلتها ومحنتها ، لصبت غضبها على الصداقة الخائبة التي تراءت لعينيها في آخر حياتها كالسراب .

وأشد ما حز في نفسها وعز عليها ان تتفقد الاصدقاء في المرض والوحدة والعذاب فلا تجد مواسيا ولا مؤنسا، ولا ترى قريبا منهم ولا غريبا ، ومن يدري فربما كانت تتمثل بحكمة من حكم ابي الطيب حين تلفت فلم يجد صديقا واعياه البحث عنه فتمنى ان يجد عدوا مداجيا، فلم يجد ، ووجدت مي القريب المريب والمستغل الحسود، والشامتة بمصيرها .

وكم اتخيل ميا في شجونها وانقباضها وحيدة شريدة، طلع عليها في ظلمات ليلها مردة وشياطين يلقون الرعب في قلبها ويصرخون من جوانبها حتى ملأوا سمعها بمنكر الاصوات وتراءوا لها بايديهم مواقد من الجحيم هجموا بها عليها ليحرقوها ففزعت وصرخت فأشهدوا عليها الناس بالجنون .

ولو اتيح لمي في زحمة الهواجس والهموم ، ان تزحزح عن منكبيها عبء احزانها لتنسمت هواء الحياة كما كانت تتنسمه وانتقمت لنفسها من اصدقائها الذين اهملوها وتخلوا عنها او تناسوها ، فكتبت فصولا خفاقة بالدم والنار ، لكنها رأت ان تكتب بدون خط ولا سطور ، وأن تتكلم بغير تعبير ، فاختارت الصمت والاعراض عن كل صديق حتى لو انها ملكت القدرة لاعرضت عن نفسها ، غير ان هذه النفس التي وجدت ذاتها مفترى عليها حبيسة متهمة بالجنون كابدت من الهم والالم ما لم يكابد مثله الا القليل من المعذبين في حياتهم ورسالاتهم ولو قيضت لمي وهي تعاني العذاب النفسي في وحدتها صداقة انسانية خالصة تخفف عنها بلواها لانستها ما حملت معها من ظلم ذوي القربى الطامعين في مالها ، ولم تكن مي ذات ثراء ، لكنها اصبحت وحيدة وما ادخرت لكهولتها كان يكفيها ، فكيف تترك من غير تنغيص او افتراء ؟ .

على ان ميا أخطأت في حسبانها للصداقة والاصدقاء واعتمادها على دوام الصداقة ، وكيف خفي عليها وهي الذكية التي عرفت عواقب الامور واوائلها ان الصداقة تشبه الزهرة وان لها عمرها وعطرها ، واذا لم تكن قائمة على تبادل المنفعة فانها لا تدوم ، وان دامت فلا بد ان تتحول او تتبدل ، غير اني اعجب لمي كيف كانت تنتظر ود الاصدقاء في عزلتها وهي التي تجافت عنهم منذ دهتها الدواهي وآثرت الوحدة ؟ . وهل فاتها ان الذين آثروها بودهم وتهافتوا عليها بالحنان والاعجاب في شبابها وتألق ادبها لم يشذوا عن طبائعهم اذ كان من شأنهم الاقبال على الانثى طالما وجدوا لديها ما يطيب لهم فيها ؟ وقد طاب لهم في مي ثقافة المرأة المبكرة وسحر فنها وحديثها وروعة ندوتها كل ذلك كان في اطار انوثتها العذبة وطلعتها الجاذبة فلما ولى شبابها وغاض من روضها الماء وذوى الزهر ولم يبق ذلك النسيم العليل يهز الغصون كان من الطبيعي فيما فطر عليه الناس ان يعرضوا عن الحديقة المقفرة .

وتلفتت مي في محنتها لترى صديقتها بنت حواء ، هل سألت عنها وتفقدتها بعد ان تخلف الاصدقاء من الرجال ؟ فوجدت تلك القلوب الندايا التي طالما ادعت الاعجاب بها وبادبها والشوق الى لقائها والحنان عليها قد جفت وصارت على القرب والبعد حجارة لها وشوكا ، وكانت مي تنتظر ان تنسيها النساء قسوة الرجال .

وهذا الامر لم يكن في الفلسفة التطبيقية لمي وعذرها عندنا انها كانت في كل شيء قل او كثر وبعد أودنا مثالية المبدأ والغاية ، وكم من عظيم من الرجال والنساء من أعماق التاريخ حتى اليوم كان ضحية مثاليته التي اقام عليها وعاش فيها ، ولو وقفنا من موضوع الصداقة عند مي موقف الناقد العادل لوجدنا أن ميا ربما كانت هي المسؤولة عن تخلي الاصدقاء عنها بسبب الاحتراز الذي طبعت عليه وعزة النفس التي كانت ترافقها في سيرتها وحياتها كلها ، فهي لم تلجأ الى صديق او صديقة حين اغلقت بابها وفضلت الصمت والعزلة ، وقد جاءها بالرغم من سدودها التي اقامتها بينها وبين الناس من يسأل عنها ويقف ببابها طويلا (٣) فكانت لا تجيب ولا تأذن لاحد بالدخول حسبانا منها بانهم ظلموها باهمالهم ، بعد ان غدر بها بعض أهلها في عدوانهم على تراثها الذي كانوا يرتقبونه على نار .

على ان الصداقة نفسها تأبى ان تزول من المعاجم ومن ألسنة الناس وقلوبهم ، لانها بحق مهما اعتراها من المثالب، تظل منحة الهية بين الانسان واخيه الانسان ، وهي اذا نامت فلا بد ان تستيقظ واذا شردت فلا تلبث ان ترتد ، واذا غابت فانها لا بد ان تعود ، ومهما يتجهم وجهها فلا بد للابتسامة ان ترجع الى محياها ، وقد عادت الى مي وهي في أشد الحاجة اليها حين حجزت عن الاعين في المستشفى ، فأطلت الصداقة عليها وهي راقدة في سريرها معذبة في نفسها وجسمها ، وفي وجوه جديدة وقديمة كانت غائبة عنها ، فلما التمست لديها المعاذير تقبلتها عاتبة واجمة حتى ارتدت اليها حريتها وخرجت من المصحة الى منزل خاص بها في رأس بيروت ، وهناك تجددت الصداقة بينها وبين الذين ساعفوها وانصفوها (٤) وكان الوجه الحنون الذي لازمها في ساعاتها الحرجة ووحدتها المضنية ، وجه فتاة دمشقية كريمة المنبت والانسانية افاضت الكثير من صباها وحنانها على مي فانعشتها كما ينعش الماء النبات الجاف في وجه الشمس وهذه الفتاة الحسناء ذات المروءة

**(١) من مذكرات مي . (٢) ازهار حلم لمي . (٣) هو صديقها الوفي الفيلسوف الدكتور منصور فهمي ، وقد ردت له الزيارة بعد عودتها من لبنان . (٤) منهم الاساتذة البير اديب وفؤاد حبيش وسعيد عقل والريحانيان امين والبرت وخليل الخوري شقيق الفارس وانيس ناصيف . (٥) من افضل الرؤساء الذين تولوا الوزارة في زمن الانتداب بدمشق .**

# من وحي ميلاد المسيح

في يوم مولده المسرة في الورى ... فجلا بفرته الظلام من الثرى
واذيع في طول البلاد وعرضها ... ولد المسيح فما ابر واطهرا
فليفخر التاريخ في اسفاره ... فخرا سيخلد في الدهور مسطرا
لا ينكر الانسان ما اوليته ... من نعمة اذ فاض كفك كوثرا
قال المسيح وفي الحديث هداية ... ان كان شكك في يديك فتبترا (١)
ولطالما اشتقنا لقرب طالما ... كادت بنا الالام ان تتفجرا
تهفو النفوس لحبه مشتاقة ... ويكاد قلب المرء ان يتفطرا
ولقد نذرت الى المسيح قصيدتي ... زينت شعري في مديحي جوهرا
ونظمت من طيب الولادة ناشدا ... وجعلت مدحي في المسيح مكفرا
ورجوت منه غفر ذنبي في الدنا ... ومحبتي في مثله لا تمترى

يا من عرفت الرفق في انجيله ... وجهلت شرعته الحكيمة في الورى
وتركت موطنه العظيم مقسما ... بين الصهايين اللئام معفرا
حاشاك ترضى يا يسوع مذلة ... وترى العقول تباع فيها تشترى
يا سيدي اضحى اليهود بقدسنا ... وهمو همو ابدوا الحديث المنكرا
جحدوك في اقوالهم وفعالهم ... ورموك بالقول البذىء المفترى
كفروا بهديك اذ قدمت لنصرهم ... تبت يدا من رام منك تغيرا
وسموت في بث المكارم في الورى ... حتى بلغت من العلا سامي الذرى
واذا امرؤ ناداك في صلواته ... فكأنه نادى السحاب المطرا
وتملكتني من رؤاه رعشة ... فسهرت ليلي تاركا حلو الكرى
ونظمت شعري في هواه معبرا ... ومرتلا آيات قلبي شاكرا

بغداد

عبد الخالق عبد الرحمن



( ١ ) جاء في الفصل العاشر الآية ٤٢ من انجيل مرقس « فان شككتك يدك فاقطعها فخير لك ان تدخل الحياة وانت اقطع من ان يكون لك يدان وتذهب الى جهنم الى نار لا تطفأ . »

والشهامة هي بدرية عطا الايوبي (٥) التي لا تزال تعيش على ذكرى صداقتها لمي ، وتأسف انها عرفتها وهي كوكب يسري الى الغروب .

وقد كانت هذه الفتاة المثقفة الشاهدة الملازمة لمي في وحشتها وانسها وفي خوفها وامنها وقفت منها على حقيقة محنتها التي اتهمت فيها بالجنون .

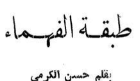
فاذا قالت مي عن الصداقة في شبابها وعز ادبها انها تزرع الحياة ازهارا فما اجدرها بان تصور الشوك الذي يرافق الورد ، لتتم فلسفتها الوضعية وهيهات فانها خرجت من الدنيا بدليل مادي على شوك الازاهير الذي ادمى كفيها .

وحين اطبقت عينيها الى الابد كان بجانبها اربعة اصدقاء صامتين بغير دموع ولا شهقات وكأنهم مثلها قد اطبقوا انفاسهم ، كانوا اربعة كتب في اربع لفات اتقنتها « باحثة البادية » « غرازيلا » « دليل حلمي التائه » ، « صورة دوريان غراي » .

فاذا ضاعت صداقة مي في الدنيا فان في ادبها وتخليد اسمها وراء القبر صداقة لا تبلى ، ولها فيما تركت من آثار وفيما تأثر به الادب والادباء الذين سعوا اليها وقدروها قدرها في عمرها الذهبي بقاء الذكر الذي تزيده السنون تجديدا وترديدا .

دمشق

وداد سكاكيني




بقلم حسن الكرمي
من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

كانت الفلسفة في الغرب في عصورها الحديثة منقسمة الى اتجاهين : اتجاه اوروبي يعتمد على تعظيم العقل واتجاه انكليزي يعتمد على التجربة والاختبار . فبينما كان الفلاسفة في اوروبا وخصوصا في المانيا يرون ان العقل هو المقياس لكل شيء ، كان الفلاسفة في انكلترا يشكون في مقدرة العقل وحده على القيام بهذا الدور ويرون ان التجربة والاختبار هما الحكم النهائي على صحة الافكار والنظريات . ولا يزال هذا الاتجاه سائدا بصورة عامة في بريطانيا ، حيث يرتاب البريطانيون في النظريات المجردة والافكار المنطقية الصرفة ، ويرون ان التجربة خير برهان على صحة المنظومات الفكرية ، وعلى فائدتها من وجهة عملية . وهم بذلك اقرب الى الفلسفة الغالبة في امريكا الشمالية ، وهي « الفلسفة العملية » التي تعتبر في خدمة الغرض المقصود المقياس الدال على صحة الافكار والنظريات . ولعل هذا الاتجاه الفكري في بريطانيا وامريكا الشمالية عموما قد حال دون انتشار الفلسفة الوجودية فيهما .

ولم يتغير هذا الاتجاه الانكلو ـ ساكسوني، وانما الذي تغير هو الاتجاه الفكري الاوروبي . فبعد ان كان الفلاسفة الاوروبيون يعظمون العقل ويعدونه الحكم النهائي في معرفة الحقائق ، اخذوا فيما بعد في التحول عن هذا الموقف وفي الارتياب بمقدرته على ادراك الكون وحقائق الاشياء . وتزعم هذه الحركة ، كما قلنا من قبل ، الفيلسوف الالماني « كانت » . ومن جملة ما قاله هذا الفيلسوف ان للعقل دائرتين : دائرة تختص بالادراك الحسي الذي يقوم عليه العلم الطبيعي ودائرة تختص بالدين والاخلاق ، وان لكل دائرة من هاتين الدائرتين معيارا خاصا . فكأنه بذلك قد جعل الدائرة الثانية مرصدا يرقب منه التفكير العقلي ويحكم عليه بمقاييس مختلفة . وقال ايضا ان العقل هو الذي يضفي على الاشياء صفات غير موجودة فيها . ومن ذلك مثلا ان النظام الذي نشاهده في الحوادث الطبيعية انما هو من صنع العقل ، لانه هو الذي يجعلنا نظن بأن الحوادث تجري على نظام طبيعي ثابت . وقد خالف بهذا الاراء الفلسفية السابقة عن حقيقة الكون . ولنأخذ لذلك مثلا الفيلسوف الاغريقي أرسطو . فأن هذا الفيلسوف القديم كان يرى ان المعرفة شيء والاشياء المعروفة شيء آخر . والعلاقة القائمة بين العارف والمعروف لاتغير حقيقة الاشياء ، بل يبقى الشيء المعروف على حاله ، وانما الذي يتأثر بهذه العلاقة هو العقل لانه ، على اثر هذا الاحتكاك ، يكون افكارا وصورا عقلية فيه . وسار فلاسفة القرون الوسطى ، ومنهم الفلاسفة العرب ، على هذه الطريقة .

وكان ديكارت الفيلسوف الفرنسي في القرن السابع عشر يعترف بوجود العالم كاعتراف الفلاسفة الاقدمين ، ولكنه كان يعتبر ان المشكلة الفلسفية الكبرى هي كيفية معرفة الانسان لهذا العالم . فهو قد عاد الى وضع ذي قطبين في علاقة الانسان بعالمه : القطب الواحد هو النفس والقطب الثاني هو العالم . وصرف اهتمامه الى القطب الاول ، واخذ يتساءل عن امكان معرفة الانسان لهذا العالم . وخرج في افكاره الفلسفية التي اودعها كتابه « التأملات » الى ان المعرفة تأتي عن طريقين : الاحساس والعقل . ثم ادى به البحث الى الشك في صحة المعلومات عن هذين الطريقين ، وانكر ان يكون العقل او الاحساس دليلا يعتمد عليه في معرفة العالم الطبيعي . ولم يبق لديه شيء حقيقي يعتمد عليه الا الوجود ، وقال عبارته المشهورة : انا افكر فانا موجود ، فالحقيقة الاولى الثابتة عنده هي انه مخلوق مفكر . وقال ان مجرد التشكك برهان على انه موجود ، فالفكر في رايه هو الماهية ، او الجوهر وان ما ندركه بالعقل ليس الا اعراضا لهذا الجوهر ، وان جميع مدركاتنا لا تتعدى ان تكون مدركات فقط ، وان العالم الحقيقي لا يزال ممتنعا عن شعورنا به . فنحن اذن لانعيش في العالم ولسنا موجودين فيه ، وانما تكون مدركاتنا صلات تربط بين شعورنا والعالم . وجواب الوجوديين على ذلك بسيط وهو اننا نعيش في هذا العالم .

فهذا الشد بين الفلسفة التي تؤمن بحقائق الاشياء مستقلة عن العقل والفلسفة التي ترى ان الاشياء عبارة عن افكار او صور عقلية ، انتهى الى طريقة ثالثة وهي طريقة الفيلسوف الالماني ادمند هسرل ( ١٨٥٩ ـ ١٩٣٨ )، وهي المعروفة بالفلسفة الوصفية . ويجب هنا التفريق بين هذه الفلسفة والفلسفة الظاهرية . فان عالم الفيلسوف يختلف باختلاف الفلاسفة والنظريات الفلسفية . فعالم الحس العام يتألف في الغالب من اجسام او اجرام مجسمة، ولهذه المجسمات صفات مختلفة كالليونة والقساوة والحرارة والبرودة والحجم والشكل والثقل . وقد لا تكون هذه الصفات على حالة واحدة دوما بل تختلف باختلاف الاشخاص والاحوال . فالشيء يرى صغيرا عن بعد ، ويكون ثقله في اليد اليسرى اكثر منه في اليد اليمنى ، وهكذا . ولكن هذه الصعوبة يمكن التغلب عليها اذا استعملنا المقاييس العلمية ، كأن نقيس الشكل والابعاد بالمسطرة مثلا والثقل بالميزان والحرارة بميزان الحرارة وهكذا . فالمعلومات التي نحصل عليها باستعمال هذه

المقاييس العلمية تعطينا حقيقة الليونة والقساوة ، والحرارة والبرودة والحجم والشكل والثقل هذه المعلومات هـي المعلومات الحقيقية ، في حين ان المعلومات الحسية المجردة هي المعلومات الظاهرية . فالصفات التي تقبـل القياس وتتحدد بالمقاييس العلمية تسمى « الصفـات الاوليـة » والصفات التي لا تخضع للقياس تسمى «الصفات الثانوية» . ولكنها مع ذلك صفات حقيقية موجودة ، لا تقل في ذلـك عن الصفات الاولية . فالاعشاب الخضراء ليست خضراء ظاهريا وانما هي خضراء حقيقيا . ثم ان الاعشاب الخضراء جميلة المنظر ، وجمالها ليس ظاهريا بل هي جميلة فـي الحقيقة . والجمال هنا مزيج من عوامل مختلفة . ولذلك اطلق على هذه الصفة اسم آخر وهو « الصفة الثالثية » .

اما عالم العلم ، خلافا لعالم الحس العام ، فيتالف مـن الاشياء التي يمكن قياسها . فهو اذن عالـم الصفـات الاولية . ولهذا فان العلماء ينكرون الصفات الثانويـة والثالثية . فالخضرة مثلا في رأيهم ليست الا احساسـا ناشئا عن بعض الامواج الضوئية التي تقع على شبكيـة العين . وهذه الامواج يمكن قياسها ، فهي اذن من الصفات الاولية ، وليست من الصفات الثانوية . ثم ان الاجسام في نظر العلم عبارة عن جزيئات والجزيئات عبـارة عـن ذرات والذرة مؤلفة من اجزاء دقيقة اخرى او الكترونات تدور في مدار شبه المجموعة الشمسية ، وهذه الاجـزاء الدقيقة عبارة عن شحنات كهربائية تسبح في الفـراغ . فالجسم الجامد الذي نعرفه بالحس العام عبارة عن فراغ في نظر العلم . ولذلك كان العالم الانكليزي ادنكتن يقـول ان الطاولة التي نجلس امامها طاولتان : طاولة الحس العام وطاولة العلم . ومعنى ذلك ان عالم الحس العام عالـم يختلف عن عالم العلم . ثم ان اينشتاين انكر ان يكون للشيء حجم وشكل على وجه التحديد . لان هذا الحجم او الشكل يختلف باختلاف موضع المقياس الذي نستعمله وسرعتـه في الفضاء . وعلى ذلك فان الصفات الاولية لم تعد صفات مطلقة ، بل اصبحت في نظر العالم صفات نسبية ، واصبح الانسان يشعر انه يعيش في عالم مختلف كل الاختـلاف عن العالم الذي يعرفه ببدائه العقول . وكلما تعمق العالم في تقصي الاشياء وجد ان المقاييس نفسها التي يستعملها هي ايضا نسبية وليست مطلقة ، ووجد ايضا ان العالـم الذي تشعر به وهم من الاوهام . وتطرق الشك ايضا الى العلاقة المعروفة بين العلة والمعلول . واخذ العلماء يشككون في حقيقة هذه العلاقة ، فالرؤية مثلا تنتج عن الاشعـة الضوئية التي تخرج من الشيء فتمر في الهواء ، ثم تقـع على العين وتسير فيها الى الشبكية فيحدث تفاعل هناك مع الاعصاب التي تنقل ذلك التفاعل الى الدماغ فيحللهـا الدماغ ويصل الى نتيجة معينة او حلم معين ، بعد هـذه السلسلة الطويلة من الاثار والمؤثرات . وهنا يتسـاءل العلماء : كيف يصح لنا ان نقول ان الحكم النهائي للدمـاغ يعطينا صورة مطابقة للشيء المنظور او شبيهة به لا فالصورة النهائية قد تكون ، بعد هذه التفاعلات والتطورات الطويلة ، شيئا يختلف تماما عن الشيء الاصلي . فالاحكام العقلية النهائية قد تكون شبيهة بشعور المريض بطعم المرارة في الماء العذب او شبيهة بانكسار القضيب اذا نظر اليه وهو في الماء .

وثمة عالم آخر . وهو عالم الماديين . فالفلاسفة يجدون انفسهم بين عالمين : عالم الحس العام وعالم العلم ، وعليهم ان يختاروا واحدا منهما ، ولكن المخرج الوحيد لهم هو ان يعترفوا بان احد هذين العالمين وهمي غير حقيقي ، او انه اعتباري محض . وهنا يأتي دور الماديين . فالماديـون يؤمنون بعالم العلم . ويعتقدون ان المادة حقيقـة ثابتـة اولية ، توجد مستقلة عن العقل ، وهي مصدر احساساتنا ، وآرائنا وافكارنا ، بل هي اساس العقل نفسه . فالعالـم المادي ، في راي الفلاسفة الماديين ، هو الحقيقة الوحيدة ، والعقل مشتق من المادة . ولكن الفلسفة المادية في الماضي كانت تعتمد على القول بان الاجسام مكونة من ذرات وان هذه الذرات موجودة فعلا . وهذه فكرة قد نقضها العلم الحديث حينما اثبت ان هذه الذرات عبارة عن الكترونات وان الالكترونـات ليسـت مـوادا بالمعنـى المعـروف . ثـم ان العلاقـة بـين العلـة والمعلول لم تعد قاعدة ثابتة مستمرة ، بل تبين انهـا تسير على مبدا المتوسط الحسابي ، او الاحصائي ، مـع وجود شذوذ يزداد وينقص بحسب الاحوال . وتغيرت النظرة الى الزمن والفراغ ، والى المقاييس العلمية نفسها ، فالفلسفة المادية على اساس هذه الاعتبارات ، يمكـن ان توصف بانها تقوم على اساس واه . ولكن الفلاسفة الماديين الحديثين تحولوا عن موقفهم السابق الى موقف جديد ، وهو ان العالم الحقيقي هو العالم الذي يكشف عنه العلم ، فهو العالم الاولي والحقيقي وليس غيره . وهم مستعدون الى تقبل ما يأتي به العلم ايا كان ، حتى ولو آل بهـم الامر الى تغيير فكرتهم عن المادة ، دون ان يتبعوا انفسهم فـي البحث عن كيفية معرفة هذا العالم . وهو الامر الـذي اشغل بال العالم الفرنسي ديكارت كما ذكرنا آنفا .

واذا كنا لا نؤمن بالمادية ولا بعالم الحس العـام ، فليس لدينا الا ان نؤمن بما نتلقاه من معلومات عن طريق الاحساس فقط بدون ادخال الفكر في ذلك ، حتى لا نقع فـي تعقيدات عن اسباب الادراك وكيفيته . فالعالم هو مـا نراه ونسمعه ونلمسه ونشمه وكفى . فالمعلومات الحسية التي نتلقاها هي الاساس ، والفلاسفة الذين يرون ان العالم مكون من هذه المعلومات الحسية يسمون باصحاب الفلسفة الظاهرية .

وقبل ان ندخل في بحث الفلسفة الوصفية للفيلسوف الالماني ادمند هسرل . نود ان نلقي نظرة موجزة على ناحية من فلسفة الفيلسوف الالماني الاخر نيتشـه ( ١٨٤٤ —

١٩٠٠ ) لان لهذه الناحية تعلقا بناحية من فلسفه الفيلسوف الدانماركي كيركيكور الذي يعتبر بانه موجد الفلسفة الوجودية . والناحية هذه هي الارتياب من المنظومات الفلسفيه الشاملة التي تسعى لتفسير هذا العالم تفسيرا يعلل الحقيقة بكاملها ، مما يؤدي الى الوقوع في اراء تبعد الانسان عن وجوده وعن معرفته البديهية . فالفيلسوف نيتشه يحتقر هذه المنظومات الفلسفية ويدعو الى العودة الى الارض والى العيش الموجه نحو الارض . وهو على اتفاق تام من كيركيكور في ذلك ، وكلاهما لم يشغل نفسه في تقسيم الوجود الى نفس وعالم ، كما فعل ديكارت ، بل اعتبر الوجود وحدة غير منفصلة . ومع ان ديكارت اوغل في بحثه الفلسفي النظري ، الا انه فتح الطريق امام كيركيكور وغيره من الوجوديين بانه شدد على دور الانسان نفسه في معرفة هذا العالم . وفتح الطريق ايضا امام الفلاسفة الوصفيين ، ولا سيما هسرل، باهتمامه بالناحية النفسانية الفرديةوجعلها اساسا لما يشعر به الانسان في اختباره لهذا العالم ، وكذلك نيتشه ، فانه بتوجيهه الانتباه الى الارض التي نعيش عليها فتح الباب امام التفكير في كيفية العيش وفي كيفية الوسائل المؤدية الى اختبار هذا العالم . فالمسالة تدور حول ما نشعر به عند اتصالنا بالعالم كما هو ، وهذا هو اساس الفلسفة الوصفية .

ونحن نذكر ن فلسفة الحس العام تعتبر العالم مؤلفا من اجسام موجودة في فراغ وزمان وتخضع لبعض السلوك المنتظم الذي يمكن التكهن عنه بقوانين طبيعية . والعالم ايضا يسكنه ناس يتميزون عن الاشياء الجامدة بوجود نفوس لهم . فالاشياء تكون حارة او باردة ، وجميلة او غير جميلة ، والناس يكونون صالحين او طالحين ، وشجعان او جبناء . هذه هي المعلومات التي نتلقاها في هذا العالم . فهذه المعلومات من ناحية بديهية لا يتطرق اليها الشك . ولكن لننظر الان في تلقي هذه المعلومات كيف يكون . اولا نحن نعتبر ضمنا ان الاشياء موجودة في محيط خارج عنا ، وثانيا ان للانسان عقلا يدرك به هذه الاشياء ، وان الانسان يجب ان يحصر اهتمامه في المعلومات المتلقاة وفي التقسيم يثير مشكلات فلسفية نحن في غنى عنها اذا حولنا انتباهنا فقط الى كيفية اختبارنا للاشياء وكيفية شعورنا بها ، مع ايقاف التفكير في حقيقة وجود الاشياء او عدمها وفي قدرة العقل على تصور الحقيقة او عدمها . اي ان الانسان يجب ان يحصر اهتمامه في المعلومات المتلقاة وفي وصفها . فالفيلسوف الوصفي ، في راي هسرل ، هو الذي يفكر فقط في شعوره بالاشياء وفي وصف هذا الشعور ، بدون الاهتمام بالقوانين الطبيعية ولا باعتبار الاسباب والعلة والمعلول . وهذا ما يعنيه هسرل حينما ينادي بالعودة الى الاشياء ويطالب بحجز معلوماتنا الفلسفية عن العالم ، تفاديا للتشويش الذي يحصل في الذهن

## حب بريء

حب تجمر في الرماد
أبى الدناءة ، لا يضيء
بيني وبينك شان ما
يقضي الوفا : حب بريء
فاذا التقينا قد يبوح
بشوقنا النظر الخبيء

حلب — علي الناصر

ويصرف الفكر عما نشعر به فعلا في اختبارنا للاشياء . ولنأخذ مثالا على كيفية هذا الاختبار . فاننا اذا نظرنا الى شيء مجسم امامنا فلا نرى منه الا جانبا واحدا ، ولا نرى داخله . فنحن نعرف اننا نرى هذا الجانب فحسب ، ولا نراه كله ، ولا نرى داخله . هذا هو اختبارنا لهذا الشيء ، فلا يجب ان نتعداه وندخل في فلسفات عن طبيعة هذا الشيء وحقيقته او عن صحة رؤيتنا له او غير ذلك . فهذا الانصراف الى هذه الناحية من الاختبار دون غيرها هو الذي يسميه هسرل باسم « الانقلاب » . فالفيلسوف الذي لا يؤمن بالفلسفة الوصفية يبحث في حقائق العالم وفي التوصل اليها ، في حين ان الفيلسوف الوصفي يبحث في الصورة التي يشعر فيها الانسان بهذا العالم . فكأن الفيلسوف هسرل يدعو الفلاسفة الى التوقف موقتا عن التفكير في حقيقة وجود الاشياء الخارجيةوعدمه وعن التفكير في عقول بعضهم البعض ، والانصراف ، بعد هذا التحرر ، الا وصف الاختبارات الشعورية ، بدون ان يقحموا انفسهم في هذا الوصف ، وان يكتفوا بموقف المتفرج الذي يشاهد الحوادث عن بعد وهو منفصل عنها . فالمتفرج الذي يكتب تقريره لجريدة او اذاعة يصف ما يشاهده على ما هو عليه ، بدون ان يدخل في ذلك عواطفه او ميوله الخاصة .

هذه الفلسفة الوصفية هي التي كانت صلة الوصل بين كركيكور الدانماركي وبين الوجوديين الذين جاءوا بعده . وقدتعددت نواحي هذهالفلسفة علىايدي الوجوديين المختلفين امثال هايدكر ـ الالماني وسارتر الفرنسي ومرلو ـ بونتي الفرنسي وغيرهم . وهي ليست فلسفة جديدة بالمعنى الدقيق ، بل هي متأثرة بفلسفة « برنتانو »الوصفية ( ١٨٣٨ ـ ١٩١٧ ) وهذا بدوره متأثر بفلسفة ارسطو وفلسفة القرون الوسطى .

لندن — حسن الكرمي

# طائر الموتى

الى بدر شاكر السياب في عالمه الثاني

* * *

يا طائر الموتى المحوم فوقنا ، وعلى ذرانا
من اي ارض جئت ، كم افقا عبرت من البحار
لتحط فوق يد النار
يا طائر الموتى ، وفي عينيك من القلق البراري
ظمأ وشوق يلهثان ويرعشان بلا قرار
لم يبق ماء في جداولنا ، وقد شربت ربانا
حتى مدامعنا ، فجف الدمع ، فاشرب من دمانا
يا طائر الاحباب ، ان طيورنا هجرت قرانا ..

يا طائر الموتى ، عجيب ما سمعت وما تراه
فاحمل ــ رسول الشوق ــ للموتى تحايانا ، وبعضا من ثرانا
وأذا مررت على « بويب » بين اعذاق النخيل (١)
خط من الرمل المذاب ــ يسيل فيه دم الاصيل
قف عند ( جيكور ) ... فان لآلىء الانداء فيها (٢)
اجفان « اقبال » تقطرها لزغب قطا حيارى (٣)
ان مر عكاز .. تراكض ... ثم ترتجف انكسارا
فاشرب من المطر الحزين ... وقل لجيكور سلاما
يا نبع « بدر » يا هواه ، ويا « معابده الفريقه »
يا « منزل الاقنان » ، يا مهد الطفولة ، يا صباه
يا وجه « غيلان » ، ويا قمرا تسامره « وفيقه » (٤)
با شمس تشرين ، تسير مع « الغريب » على خطاه

... يا طائر الموتى .. وحلق فوق اضواء الخليج
ثم انطلق .. عد دونما ذكرى ليحلم بالمحار
« ايوب ».. بالمطر الربيعي البهيج ...
فجرا يذر على المعابر والعرائش والحقول
بالشمس ، يبهر قوسها الغزلان ، في قمم التلول
وبنجمة الصبح التي نعست ، فاغفت مقلتاها
وعلى « شناشيل ابنة الجلبي » قد القت رداها
وترفرفت سحرا عليها

يا طائر الموتى ، المحوم فوقنا ، وعلى ذرانا
عد دونما ذكرى ، ولا تحمل اسانا
للراقدين ، بلا عيون ، يحلمون بان يعودوا
يوما ... الى ارض يلونها الحنين
... وسيضحك القمر الحزين
للعائدين الى المرافىء ، بعد ان عبروا البحارا
وتعلقوا بالريح ... وانطلقوا .. وقد سبقوا النهارا
... عد دونما ذكرى ، ودعهم يحلمون بان يعودوا
فضلوعهم لا زال فيها ، لوعة ، شوق ، وعود
يا طائر الاعماق ، ان طيورنا هجرت قرانا
فاحمل الى الاحباب ، منا ، الشوق ، اسمعهم هوانا

بغداد حسين جليل

( ١ ) بويب : جدول في قرية الشاعر السياب . ( ٢ ) جيكور : قرية الشاعر السياب ، وهي من قرى جنوبالعراق ( ٣ ) اقبال : زوج الشاعر السياب ( ٤ ) غيلان : ابن الشاعر السياب ، وفيقة حبيبة السياب التي اختطفها الموت منه .

# مندور بين الجمالية والايديولوجية

بقلم فرحان بلبل

* * *

لم ينتقل محمد مندور الى الرفيق الاعلى الا بعد ان أصبح اكبر ناقد في الشرق العربي وبعد ان اعطى النقد دفقة حية تقدمت به وجعلته رائدا وموجها لادبنا العربي . ومن ضجيج المطابع وزخم الحرف وصراع الادب سافر الجسد المسجى بهدوء الموت وكبرياء القبر رحلته الاخيرة فحق لضجيج الالة الذي يبعث الحرف صراعا في حومة الادب ان يعيد النظر في نتاج الراقد بعد ان استقرت آراؤه فهو لن يزيد عليها شيئا ولن يغير من مستقراتها . فالموت يضفي عليها ثوبه النهائي . وسأحاول هنا ان اوضح بعضا صغيرا من نظرات الناقد الكبير .

مندور احد الاشخاص القلائل الذين كان لهم مذهب نقدي واضح مدروس ، فقد بنى مذهبه النقدي على اساس من دقة الذوق وسلامته ومن ثقافة واسعة ادبية وفلسفية وتاريخية وعلى اصالة في التفكير مستمدة من طول التأمل ونظافة العقل ، فهو لم يدخل ميدان النقد دون مذهب واضح ، ولم يترك للمصادفات والظروف ان تبني مذهبه ومنهجه ، ولكنه مذهب لم يجمد عند نقطة واحدة يأبى عليها الجمود عمق التطور وطرافة التجديد . بل تطور مذهبه تطورا كبيرا ورائعا دون ان يفقد اسسه الاولى ، فمنهجه في خواتيم حياته ــ رغم تطوره ــ ذو صلة وثيقة وكاملة بمنهجه في بواكير حياته .

ويقوم مذهبه على جناحين يشكلان دفة المركب الذي ركب الناقد المرحوم عليه بحر النقد المتلاطم خلال عشرين عاما حافلة بالجهد والعرق والتعب . هذان الجناحان هما الصياغة الجمالية وعلم الجمال اللغوي والنقد الايديولوجي . واولهما سبق للثاني وثانيهما متطور عن الاول مرتبط به . فلا بد اذن من معرفة التطور وكيفية الربط بين الطرفين المتلاحمين .

انه يبدأ من علم الجمال اللغوي وبتعبير آخر يبدأ من اللغة ، من الادارة المشكلة من الحروف والالفاظ ، وبالتالي يجب ان نبدأ مع مندور من اول الخيط ، من اللغة ، فهي مفتاح السر كله وحزمة الضوء التي تنير عمل مندور في الاعوام العشرين الحافلة بالجهد والعرق والتعب .

ويبدو واضحا رايه حول اللغة في المقدمة التي كتبها لترجمة كتاب « منهج البحث في الادب واللغة » للانسون ومابيه ، فهو يقول « واللغة هي مستودع تراث الامم لانزال نحن بعيدين عن استخراج ما في حناياها من حقائق انسانية عامة وحقائق خاصة للشعب العربي والعقلية العربية كما رسبت بها خلال القرون المليئة بالاحداث حتى ليصح القول باننا لا نزال نعيش على ما خلفه علماء النحو والصرف والبلاغة الاقدمون » (١)

هذا المقطع يوضح نظرة مندور للغة وبالتالي يندرج بنا في الطريق الصحيحة لمعرفة مذهبه النقدي كله .

واللغة في نظر مندور ليست تقاسيم البلاغيين وليست مناوشات علماء النحو والصرف ، لا ، انها شيء آخر انها كل حي تحوي في حناياها حقائق انسانية عامة ، والادب العربي لم يجمد ويتحجر ويذهب منه الماء والرونق الا عندما تحول النقد الى دراسات بلاغية جافة ، عندما اصبح هم الاديب ان ينساب في السبل البلاغية الجافة التي يراها النقاد سمة البلاغة والفصاحة كما نرى ذلك عند ابي هلال العسكري في الصناعتين ، وكما نرى عند جميع علماء البلاغة المتأخرين ، والادب العربي لم يستيقظ في العصر الحاضر الا عندما اصبح للكلمة مدلول واسع انساني حي ، وعندما اصبح الاديب يرى في الكلمة ظلالا للحياة وتراثا للنفس الانسانية وروحا تخفق في صدر الحروف .

ومندور يصر على هذا الدور للغة ، ونجد في كتابه « النقد المنهجي عند العرب » حماسة طاغية في اصراره على فهم كيان اللغة الحي ، وهذا الموقف من دور اللغة هو البذرة الاولى لمذهب مندور النقدي الذي قام على الجمال اللغوي ومع ان مذهبه النقدي تطور مع توالي السنين الا ان هذا الاهتمام بعلم الجمال اللغوي بقي حتى الصفحات الاخيرة في حياة مندور واضحا جليا ، وبقي الناقد المرحوم حتى آخر همساته النقدية يطلب من الادباء بالحاح حار ان يجعلوا من الفاظهم كوى روحية تهدي القراء والادباء ، وبقي تعريف الادب عند الناقد منذ كتابه « الميزان الجديد » حتى مقاله الاخير « مذهبي في النقد » : « الادب هو كل ما يثير فينا بفضل خصائص صياغته انفعالات عاطفية او احساسات جمالية » .

قلت ان هذا الموقف من اللغة هو البذرة الاولى لمذهبه في النقد . والحق ان نظراته النقدية الاولى كانت تنصب باندفاع جياش نحو هذا الاتجاه حتى كان يطالب بالهمس في الشعر ، وما الهمس في الشعر الا الثورة على قيود البلاغيين من نحو واعطاء الكلمات جمالا واتساقا مع قدرة الالفاظ على اعطاء النفسية الانسانية من نحو آخر ، وفي كتابه « الميزان الجديد » صورة صادقة عن نقده القائم على علم الجمال اللغوي والهمس الشعري .

ولكن مذهب مندور النقدي استمر في التطور حتى وصل الى المذهب الايديولوجي القائم على الهدفية في الادب والذي يجعل من الادب صورة عن الواقع الانساني يهدف اولا واخرا الى الكشف عن الخير والجمال . ويقوم مذهبه الايديولوجي على النظر في مصادر الاديب التي استقى منها عمله الادبي اولا وفي اسلوب العمل الادبي ثانيا

وفي الهدف الذي يقصده الاديب ثالثا . وهـذا النظر الثلاثي يجب ان يكون متكاملا متداخلا فتصوير الواقـع الانساني لتمجيد الخير والجمال يجب ان يبقى انسانيـا في الوسيلة والمصادر معا ، فـان « النظـر فـي المصادر والاهداف وحده لا يكفي ، بل لا بد من النظر ايضا في طريقه العلاج واسلوبه والروح التي يصدرها عنها الكاتب لنتبين هل هي روح سليمة أم مريضة ، وهل هي روح متفائلة ام متشائمة ، وهل هي روح حانية على البشر محبة لهـم ام روح شريرة ساخطـة ، وذلك لاننا قد نقع مثـلا علـى قصة او مسرحيـة تنتهـي بهزيمـة الشر وانتصـار الخيـر ، ولكننا مـع ذلـك نحس بـان اسلوبهـا قد كان اسلوبا داعرا مدمرا وقحا يسرف في المباذل ويغري بها اغراء لا يمحوه ولا يشفع له انه قد انتهى الى ادانـة هذا الابتذال ونكبته في آخر القصة او المسرحية مما يجعل الخاتمة الخيرة تمحي او تكاد امام سيل الدعارة الفاجـرة الذي تخلل صفحات عمله الادبي واشتد بريقه فيها » (٢) .

ولكنا نسأل : كيف وصل مندور الى مذهبه الايديولوجي ؟ وبتعبير اخر كيف اضاف مندور الايديولوجية الى علـم الجمال اللغوي ؟ ويبدو لي ان الايديولوجية وليد حتمـي لعلم الجمال اللغوي ، ومقدمة كتاب لانسون ومايبه هـي المفتاح . فالناقد يرى في اللغة مستودعا لروح الانسانية ولعطاء البشرية بالاضافة الى كونها وسيلة لاكساب فنـه فضائل الصياغة الجمالية ، وان للغة دورا حياتيا ، ولا شك ان من يرى في اللغة دورا حياتيا انسانيا تعبر عـن حياة الانسان في افضل مظاهرها لا بد من ان يجعـل الادب هدفيـا .

وعلى هذا اليس علم الجمال اللغـوي هـو المولـد للايديولوجية ؟ اليس الالتحام بين روحية اللغةوروحية الهدف كاملا وتاما ؟ اليس من يرى في اللغة تراث البشرية هو نفسه الذي يطلب من الاديب ان يحافظ علـى تـراث الانسانية ؟ ولذلك فان مندور الايديولوجي لم يتخل عـن علم الجمال اللغوي ، ومندور الهادف لـم ينس مستودع التراث ووعاء الحقائق الانسانية . فهو يقول « وهذا النقد الايديولوجي لا يمكن في مذهـنا ان يغني باية حال عـن النقد الفني الجمالي الذي يتميز به الادب علـى الكتابات » والادب « هو بتعريف اخر صياغة فنية لتجربة بشرية ممـا يحتم ضرورة الاهتمام بالصورة الادبية التي يصب فيهـا الاديب مضمونه الانساني ، وهذه الصورة ليست امرا شكليا ولا نافلة ، بل هي الوسيلةالفعالة التي تكسب الادب مضاءة ، وقدرته على النفاذ الى النفوس من أيسر السبل واقواهـا نفاذا واعمقها تأثيرا . وخصائص الصياغـة تلعب فيها الخصائص اللغوية وطرائق التعبير اللفظي دورا اساسيـا لان للالفاظ الوانا وارواحا ولا يمكن ان يسمى الاديب اديبا ما لم يكن قادرا على ادراك الوان الالفاظ وارواحها » (٣) .

ولا بد ان دخول مندور في معترك الحياة العامة واتصاله بالشعب اتصالا وثيقا هو الذي اكد عنـده فكـرة النقـد الايديولوجي فان من يرى الناس وهم يعتركون على صفحات الكفاح البشري ويحس بلهيب جهادهـم لا يستطيـع ان يتناساهم كما لا يستطيع أن يغفل واجب الادباء نحوهم . يقول « ثم حدث بعد ذلك ان تركت الحياة الاكاديمية في الجامعة لاعمل في الحياة حيث خالطت الناس وتلقيـت دروسا مباشرة من الحياة لا تقل اثرا وتاثيرا فـي تكويني النهائي عما تلقيت من دروس في الجامعات او قرأت من كتب داخل الجدران . وبتاثير هـذه الدروس الجديدة اخذت آفاقي النقدية تتسع وتتطور شيئا فشيئا دون ان اتنكر للمرحلة السابقة من حياتي العملية ، فقد ظلت حتى اليوم اصر على القيم الجمالية في الادب عامـة والشعر خاصة ، ولكنني اخذت ازداد اهتماما بالحياة واخذ أحساسي يزداد شيئا فشيئا بانه لا ينبغي ان يظل الادب والفن متاعا للخوض وللمتذوقي الجمال من المتازين من الناس بل يجب ان يساهم الادب والفن في خدمة الحياة وجعلها افضـل واسعد وخيرا مما هي » (٤) .

ومما لاشك فيه ان موقف مندور من قضية اللغة وتمسكه حتى النهاية بعلم الجمال اللغوي موقف مشرف وفيصـل مشرق في اتجاهاتنا النقدية الحديثة ، خاصة وان اتبـاع المذهب الايديولوجي اخذوا يهملون الاصول الفنية والقيم الجمالية في سبيل الهدف الخير الذي يقصدون اليه .

والمذهب الايديولوجي اليوم في اتساع مع اتساع المعركة التي يخوضها العرب في حومة الدنيا على جبهات السياسة والفكر والاجتماع . وموقف مندور من القيم الجماليـة ـ وهو من اصحاب المذهب الايديولوجي ـ استطاع ان يحد من انزلاق اتباعه نحو اهمال الصياغة الفنية ، لان هـؤلاء نسوا او تناسوا ان الادب هو « الذي يثير فينا بفضل خصائص صياغته انفعالات عاطفية او احساسات جمالية » واظن ان فضل مندور في التأكيد على القيم الجمالية هو اهم ميزاته الادبية وابرز عنصر في مذهبه النقدي كله .

ولكن مذهب مندور في علم الجمال اللغوي ادى به الى نتيجتين هامتين لم يلتفت اليهما الدارسون ، او ان مندور لم يولهما اهتماما شديدا مع ان احداهما تظهر في اهم كتبه هو « النقد المهجي عند العرب » وثانيهما تظهر في مقدمـة ترجمة لكتاب « لانسون ومايبه » غير ان قيمة الناحية الاولى تختلف عن قيمة الثانية ، فبينما تعتبر الاولى كشفا رائعا في توجيه النقد الادبي نجد ثانيهما جرحا في مذهبه النقدي

ولنعرض القضية : في كتاب النقد المنهجي عند العـرب يتحدث مندور عن الناقد العربي الذوق « الامدى » فـي موازنته بين ابي تمام والبحتري ، والحديث ـ في نزاهـة مندور ـ يعنى ان لا يتناسى ـ وهو يتحمس بحرارة لاهبة ـ للامدي اخطاءه ومن ابرز هذه الاخطاء ان اللغة لا يقاس عليهـا .

فالآمدي يعلن هذا المبدأ ويزن ابا تمام على اساسه كلما

انتهى في تعابيره الى غير ما انتهى اليه المتقدمون من الشعراء والبلغاء . فهو مثلا ينكر على الشاعر ان يقول « لا انت انت ولا الزمان زمان » ويرى في قوله « لا انت انت » تعبيرا شعبيا وينكر عليه ان يقيسه على « ولا العقيق عقيق » ، والآمدي يقول « انما ينبغي ان ينتهي في اللغة الى حيث انتهوا ولا يتعدى الى غيره فان اللغة لا يقاس عليها » (٦) ، فالآمدي اذن يرفض التجديد في صيغ اللغة وتراكيب الكلام

وهنا يبرز مندور ذاته صاحب مذهب علم الجمال اللغوي وصاحب الرأي في ان اللغة مستودع الامة وتراث الانسانية ، فحياة الكائن الحي عميقة متجددة واللغة هي المعبرة عن العمق والتجدد ، ولذا يجب ان نفسح المجال امام الشاعر كي يجود نوعا من التساوق والتوازي بين حياته الخافقة القلب وبين لغته التي يودعها نفسه وفكره ، ولذلك فمندور يرفض نظرية الآمدي الضيقة ويعتبرها نوعا من شقشقة اصحاب البديع .

والحق كل الحق الى جانب مندور ، فكون اللغة لا يقاس عليها شيء ترفضه طبيعة اللغات وفطرة الحياة ، والحق كل الحق الى جانب مندور وهو ينعي على الآمدي ــ بالاندفاع نفسه ــ نظريته الضيقة ، والحق كل الحق الى جانب مندور وهو يتحدث عن هذه النقطة بانسجام طيع مع مذهبه النقدي .

غير ان مما يؤسف له ان الناقد المرحوم لم يول التجديد عنايته ، ولعل انصبابه على امور نقدية اخرى كان يراها اهم واولى بالرعاية هو الذي شغله عن هذا الجانب الضخم الحي في حياتنا الادبية . وكم كنت اتمنى لو ان مندور بنظرته الثاقبة وذوقه المرهف وثقافته الواسعة ــ قد اشتغل بهذه الناحية لعله يحدد الاتجاهات الاساسية واللازمة في مشكلة التعبير وقضية التجديد اللغوي اذن لوفر على الادباء الشباب مشاكل كثيرة تعترضهم ولأتى برأي جدير بالاعتبار بين آراء المعتركين في خضم الابحاث اللغوية ، ولكن ما صار صار ولعله يكفيه انه بذر البذرة وان كانت صغيرة ووجه الانتباه وان كان جزئيا ثانويا .

بقيت الناحية الثانية ، وتبدو في مقدمته لكتاب لانسون ومابيه . يقول : « لقد تقدمت الدراسات اللغوية في الغرب وزاد الاهتمام باللهجات التي نسميها عامية ونظن انها لا تطرد على قاعدة ولا تستند الى نحو واخذت الابحاث تنهض على التاريخ من جهة والمقارنة من جهة اخرى اما نحن فلا نزال جامدين عند اللغة الفصيحة ولا تزال ابحاثنا تقوم على المنطق المجرد او التأكيدات المسرفة ، ولا تزال مسألة الصحة والخطأ محور مجالاتنا اللغوية » (٧)

في هذا المقطع يتكشف رأي لمندور مخيف خطير ، وهذا الكلام اوله صحيح وآخره صحيح ولكن يفسده التعميم : واوسطه خطأ وقياس فاسد .

اما ان الدراسات اللغوية في الغرب قد تقدمت وزاد الاهتمام باللهجات العامية المطردة على قواعد ثابتة فقول صحيح واما ان ابحاثنا ما تزال تقوم على المنطق المجرد والتأكيدات المسرفة وان مسألة الصحة والخطأ محور مجادلاتنا اللغوية فقول صحيح ايضا لو انه قال في البداية « اكثر ابحاثنا » فان هذا التعميم الحاد مسرف في اجحافه ونحن لا ننكر ان اكثر ابحاثنا اللغوية والنحوية لا تقوم على مبدأ من كشف لغوي يرى في اللغة نموا واطرادا وتجديدا . ولكن هذا لا ينفي اننا بدأنا نتحرر من هذه الربقة القاسية ، وان دراساتنا بدأت تأخذ طابعا جديدا يتجلى في ربط اللغة بمجريات التاريخ العربي ومعطيات الوجدان الانساني .

واما اننا لا نزال جامدين عند اللغة الفصيحة فهذا عيب نأباه على لغتنا ونرده في اتجاهاتنا اللغوية وقد قاس مندور هنا شيئا على شيء وخرج بهذا الرأي الذي قد يثلم مذهبه النقدي ثلمة عميقة .

فمندور ــ رحمه الله وعفا عنه ــ نظر الى الغرب فوجد الاهتمام باللهجات المحلية العامية ــ يتزايد ويعطي نتائج باهرة تجعل من اللغة مستودع الامة وتراث الشعوب وتضفي على اللغة حياة جمالية وايديولوجية واسعة ، ونظر الى اللغة العربية فوجد الاصرار والتأكيد على اللغة الفصيحة ووجد الى جانبها ضعفا عاما في الادب وخمودا في التعبير فقاس شيئا على شيء ، وخرج بهذه النتيجة وهي الدعوى الضمنية الى اللهجات العامية .

فقد ظن ان ضعف الادب وخموده نتيجة طبيعية للاصرار على اللغة الفصيحة ، وما دام الغرب قد تقدم ادبه لانتشار اللهجات العامية المستندة الى التاريخ والقواعد المطردة فالقياس يقضي ان يتخلى العرب عن لغتهم الفصيحة وان يميلوا نحو اللهجات العامية المستندة الى التاريخ والقواعد المطردة حتى يمتليء بروح جديدة .

ولكن مندور في سبيل هذا القياس نسي اشياء عديدة . نسي ان الذنب في ضعف الادب يرجع الى الاديب لا الى اللغة ، والا هل نرجع فشل اللوحة المرسومة الى الالوان والقماش والفرشاة ؟ ونسي ايضا ان طبيعة اللغة العربية تختلف عن طبائع بقية اللغات ، فالعربية لغة كاملة قابلة للنمو والتطور بشكل الفصيح ، وقابلة لاحلال الايديولوجية مذهبا عاما في الادب بينما تعجز اللغات الاخرى ــ ومندور ادرى بها ــ عن القيام بهذا الدور الكبير .

واظن ان اهتمام الغرب باللهجات العامية يرجع الى عدم قدرة لغاته الى استيعاب تطورات الحضارة بشكلها الجامد المقرر ، ولكن هذا لا يصدق على اللغة العربية ، وبالتالي فان

(١) منهج البحث في الادب واللغة صفحة ١٢ نشر دار العلم للملايين بيروت عام ١٩٤٦ . (٢) المجلة القاهرية عدد ١٠٣ تموز ١٩٦٥ مقال ( مذهبي في النقد ) لمندور صفحة ٥٩ . (٣) المصدر السابق صفحة ٥٩ـ٦٠ (٤) المصدر السابق صفحة ٥٩ . (٥) و (٦) النقد المنهجي عند العرب طبعة مكتبة نهضة مصر صفحة ١٢٣ . (٧) : منهج البحث في الادب واللغة صفحة ١٣ .

# وحدي

هدهدي .. هدهديني بوعد نبيل
قبل ان يستجيب لقلبي الافول
وعدك الضائع المستحيل
هـل له من قفـول ؟
يا غناء سـرى من حنايا بخيل !

كنت ارنو الى الافق ذات صباح
فاستهلت على نغماتي جراح
وذكـرت ذات الوشاح
فـمراني النـواح
واستبدت بقلبي شظايا الرياح !

كنت وحدي هناك وكان الغروب
ونضار على الافق زاه يذوب
رغم صوت الطيور المجيب
كان قلبي غريب
فانا كنت وحدي ولا من مجيب

لا تقولي نسيتك وسط الزحام
لا تقولي انتهى حبنا في الظلام
حبنا ليس عنه انفطـام
حبنـا لا ينـام
حبنا قمة تتحدى الانام !

لا تقولي انا قد قلوت الهوى
فانا كل عمري صريع الجوى
ان قلبي صد ما ارتوى
عاش رهن النـوى
هو قد ضل في تيهه ما ارعوى !

يـا نداء على شفتي لا يريم
يا حداء به اتحدى النجوم
استوى فوق ظهر الغيوم
رنحتني الهمـوم
انت لو رمت عدت نشيدا يدوم !

طالعيني ببسمة عهد مضى
لا تقولي نضا جـرحه وانقضى
هو لما يعش مغمضا
هـو نبع الرضا
اودعيني اعش متعبا محرضا !

سوف يبقى هوانا برغم السنين
يتحدى الدنى يتحدى المنون
قد زرعناه فوق الظنـون
منهـلا للعيـون
نحن حلم به غرد الحالمون !

الرياض — حسن عبد الله القرشي



قياس لغة على لغة مع الفوارق الكبيرة بينهما منطق انكر مندور نفسه مثله في مذهب قدامة بن جعفر الاعجمي في كتابه الرائع « النقد المنهجي عند العرب » .

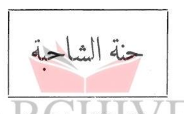
هاتان النقطتان الاخيرتان ـ وهما الهجوم على الجمود اللغوي والدعوة الى العامية ـ تنبثقان معا عن مذهبه النقدي . فلكي تكون اللغة اداة طيعة في استيداع حيـاة الامة ولتحمي الايديولوجية في الادب يجب ان تكون لغة مفتوحة تأبى الانغلاق ، وبمعنى آخر يجب أن تسمح لنفسها ـ او ان يسمح لها ابناؤها ـ بالتطور والنمـاء . ولا يتم التطور والنماء الا بالقياس على الاشباه والنظائر وبالسماح للادباء ان يأتوا من التعابير ما شاقوا بشرط ان ينسجم الابداع مع طبيعة اللغة . وهذا لعمري اروع تطبيق لعلم الجمال اللغوي وللمذهب الايديولوجي فالجمال والخير صنوان للتطور والانفتاح مع التقيد بطبيعة اللغة وقواعدها الكبـرى ..

ولكن التطور والنماء يجب ان يصلا الى حد الاتيان بلغة جديدة تختفي تحت اسم اللهجة العامية للغة الفصيحة ، لان الجمال والخير اذ ذاك يصبحان ضحلين مرتهنين بعقود قليلة من السنين ، فتتخلى اللغة بذلك عن كونها مستودع الامة وتراث الانسانية ويبدو ان اغـراق منـدور في ايديولوجيته هو الذي وصل به الى ما وصل اليه . ولاشك انه لو اصر مندور على هذه الناحية لكان قد انتقل نقلة كبيرة وخطيرة من مذهبه النقدي الرائع الى مذهب جديد لا يبقى على شيء من مذهبه الاول .

وبعد فهذه محاولة لتوضيح بعض جوانب مذهب مندور في النقد ، وهو مذهب جدير بالاعتبار وقمين بدفع النقد الادبي والانتاج الفني نحو مسارب تستحق الخلود ، وهـو مذهب كامل تام ومتطور تام ، ارجو ان يزيد عليه النقـاد اللاحقون وان يتمموا الرسالة النقدية العظيمة التي افنـى في سبيلها الناقد المرحوم حياته ، ولا يقدح في قيمة المذهب انه انزلق بعض الانزلاق . رحم الله مندور ، وكفى المرء نبلا ان تعد معايبـه ..

حمص — فرحان بلبل




# حنة الشاحبة

للكاتب الالماني هنريخ بول

مهداة الى الصديقة الالمانية كرستا بيتمن

ترجمة عيسى الناعوري

لم اعد من الحرب الا في ربيع عام ١٩٥٠ ، وقد وجدت انه لم يبق في المدينة احد ممن كنت اعرفهم . ولحسن الحظ كان ابواي قد خلفا لي بعض المال ، فاكتريت غرفة في المدينة ، واضطجعت على السرير ، ورحت ادخن وانتظر دون ان اعرف ما الذي انتظره . ولم يكن في نيتي ان اشتغل . وكنت اعطي صاحبة المنزل نقودا فتشتري لي كل شيء ، وتطهو طعامي . وكانت كلما حملت القهوة او الطعام الى غرفتي تمكث فيها وقتا اطول مما كنت اريد . لقد قتل ابنها في مكان يدعى كالينوفكا ، وكلما دخلت غرفتي كانت تضع الصينية من يدها ، وتجيء الى الزاوية القليلة النور التي فيها سريري . هناك كنت اغفو خاملا ، واقذف باعقاب السجائر على الجدران ، ، حتى اصبح الجدار القريب من سريري مليئا كله بالبقع السوداء .

كانت صاحبة الدار شاحبة الوجه نحيفة ، وحين كان وجهها يقترب من فراشي في النور الخافت ، كنت اشعر بالخوف . لقد حسبتها في بادىء الامر معتوهة ، لان عينيها الواسعتين كانتا ترسلان بريقا شديدا . وكانت تسألني وتكرر السؤال عن ابنها مرارا متعددة : « أأنت واثق من انك لا تعرفه ؟ ان المكان يدعى كالينوفكا ـ الم تذهب الى هناك قط ؟ » .

غير انني لم اكن قد سمعت قط بمكان يدعى كالينوفكا . وفي كل مرة كنت استدير نحو الحائط واقول : « كلا ، لم اذهب الى هناك فعلا . ليس في وسعي ان اتذكره »

ولم تكن صاحبة المنزل معتوهة ، بل كانت امرأة دمثة جدا ، وكان يؤلمني ان تلقي علي تلك الاسئلة . لقد كانت تسألني كثيرا ، مرارا متعددة في اليوم الواحد ، فاذا ما ذهبت اليها في المطبخ كان علي ان انظر الى صورة ابنها ، وهي صورة فوتوغرافية ملونة معلقة على الحائط فوق الكنبة . كان ولدا ضاحكا جميل الشعر ، وهو في الصورة يرتدي بزه الخروج للجنود المشاة .

وتقول السيدة : « لقد اخذت له هذه الصورة في الثكنة قبل ان يذهبوا الى الجبهة » .

كانت صورة نصفية : انه يرتدي خوذة فولاذية ، ومن خلفه يمكنك ان تميز بوضوح شديد صورة قصر خرب ، تتسلق عليه كله حشائش اصطناعية .

وتضيف السيدة : « لقد كان سائق ترام . كان يحب العمل كثيرا » . وفي كل مرة تأخذ علبة الصور الموضوعة على طاولة الخياطة بين ارقع وكباكيب الخيطان ، وتضع في يدي عددا من صور ابنها : افواج مدرسية يجلس في وسط الصف الامامي من كل فوج ولد يضع بين ركبتيه لوحا للكتابة ، وعلى اللوح الارقام ٦ ، ٧ ، واخيرا ٨ . وفي ربطة منفردة مشدودة بشريط مطاط احمر كانت صورة التناول الاول : طفل يبتسم ، في بدلة سوداء ويحمل في يده شمعة ضخمة . بهذه الطريقة كان قد وقف امام لوحة شفافة مرسوم عليها كاس ذهبية .

ثم تجيء صور يبدو فيها تلميذا امام مخرطة ، يتعلم صناعة الاقفال ، وعلى وجهه بعض البقع ، ويده تمسك بمبرد .

وتقول السيدة : « لم يكن هذا عملا لائقا به . لقد كان عملا مرهقا » .

ثم تريني اخر صورة له قبل ان يصبح جنديا : كان فيها يقف في ثياب سائق ترام الى جانب ترام يحمل الرقم ٩ في المحطة العمومية ، حيث تصطف العربات في حلقة دائرية .

وقد عرفت فيها موقف المرطبات الذي كثيرا ما كنت ابتاع منه السجائر . لقد عرفت شجرات الحور التي ما تزال قائمة الى الان هناك ، ورأيت البيت الذي كان يقوم على بابه اسدان ذهبيان ولكن الاسدين لم يعد لهما من اثر هناك . وتذكرت الفتاة التي طالما فكرت فيها ايام الحرب : لقد كانت جميلة ، شاحبة الوجه ، مستطيلة العينين ، وكانت دائما تركب الترام رقم ٩ من المحطة العمومية .

كنت في كل مرة احب ان اطيل النظر الى الصورة التي يظهر فيها ابن السيدة عند الترام رقم ٩ ، في المحطة ، وتخطر في بالي اشياء كثيرة : الفتاة ، ومعمل الصابون الذي كنت اعمل فيه حينذاك ، واسمع قرقعة الترام على الحديد وارى الليموناده الحمراء التي كنت اشربها في موقف المرطبات في الصيف ، واعلان السجائر الاخضر ، ثم اعود الى التفكير في الفتاة .

وتقول السيدة : « لعلك عرفته بعد كل هذا » !

فاهز راسي واعيد الصورة الى العلبة : لقد كانت صورة صقيلة ملساء ، وما تزال تبدو جديدة على الرغم من ان عمرها ثماني سنوات . واقول : « كلا ، كلا . ولا كالينوفكا ايضا . لم اعرفه فعلا » .

لقد كنت مضطرا الى الذهاب اليها في المطبخ كثيرا ، وكثيرا ما كانت هي تجيء الى غرفتي . وكنت كل يوم افكر في ما اود ان انساه : ـ

الحرب ـ فانفض رماد سيجارتي خلف السرير ، واقذف بعقبها الى الجدار .

وفي بعض الاحيان ، حين اكون مستلقيا على فراشي في المساء ، كنت اسمع خطى فتاة في الغرفة المجاورة، او اسمع الرجل اليوغوسلافي الذي يقيم في الغرفة القريبة من المطبخ يلعن ويتمتم وهو يبحث عن زر النور قبل دخوله الى غرفته .

ولم استطع ان الاحظ ـ الا بعد ثلاثة اسابيع من اقامتي هناك ، وبعد ان امسكت بيدي للمرة الخمسين صورة كارل ـ ان عربة الترام التي يقف امامها باسما وبيده محفظة النقود لم تكن فارغة . للمرة الاولى نظرت باهتمام الى الصورة فرأيت في داخل العربة فتاة تبتسم ، وقد ظهرت في الصورة بوضوح . انها الفتاة الجميلة عينها التي طالما فكرت فيها في اثناء الحرب .

وجاءت ربة المنزل ، وراحت تتفرس باهتمام شديد في وجهي ، ثم قالت : « هل عرفته الان ؟ » ثم دارت من خلفي ، ومن مئزرها المشمر ارتفعت خلفي رائحة البيزيلا الخضراء

فقلت : « كلا . ولكنني اعرف الفتاة » .

فقالت : « الفتاة » ؟ لقد كانت خطيبته . ولكن لعله كان خيرا له انه لم يعد يراها ابدا » .

فسألتها : « لماذا ؟ »

فلم تجب ، بل ابتعدت عني وجلست على كرسي بجانب النافذة ، ومضت تقشر البيزيلا . ومن دون ان تنظر الي قالت : « هل عرفت الفتاة » ؟

فامسكت بالصورة في يدي بشدة ونظرت الى ربة المنزل واخبرتها عن معمل الصابون ، وعن موقف الترام رقم ٩ ، والفتاة الجميلة التي كانت دائما تركب الترام من هناك .

ـ لا شيء سوى هذا ؟

فقلت : « كلا »

فتركت السيدة البيزيلا تتدحرج الى داخل مصفاة ، وفتحت صنبور الماء فوقها . ولم أر غير ظهرها الضيق .

ـ «حينما تراها مرةاخرى ستعرف لماذا كان من الخير انه لم يعد يراها ابدا » .

فقلت : « لم يعد يراها ؟ »

فنشفت يديها بمئزرها واقتربت مني ، وتناولت الصورة من يدي بعناية شديدة . وبدا لي وجهها اشد نحافة . ونظرت عيناها الى ابعد مني ، ولكنها وضعت يدها على ذراعي اليسرى وقالت : « انها تعيش في الغرفة المجاورة لغرفتك . هناك تقيم حنة . اننا ندعوها دائما « حنة الشاحبة » لان لها وجها شديد البياض . احقا انك لم ترها بعد » ؟

فقلت : « كلا ، لم ارها بعد، ولكنني سمعتها مرات قليلة .. ماذا بها » ؟

ـ « لست احب ان اتحدث عن امرها ، ولكن الافضل ان تعرف انت الحقيقة . لقد تشوه وجهها تشوها كاملا ، واثار الجراح تنتشر عليه باكمله ـ لقد قذف بها الانفجار الى داخل زجاج احد الدكاكين . انك لن تتمكن من معرفتها » .

في ذلك المساء انتظرت طويلا حتى سمعت وقع خطى على قرص الدرج . ولكنني اخطأت الحدس في المرة الاولى : لقد كان اليوغوسلافي الضخم الجثة ، وقد نظر الي دهشا حين رآني اخرج فجأة من غرفتي الى قرص الدرج . فقلت مضطربا : « مساء الخير » ، وعدت الى غرفتي .

وحاولت ان اتخيل وجهها بندوبه الكثيرة ، ولكنني لم استطع ذلك ، وما رأيته مرة الا كان جميلا حتى مع الندوب . وتذكرت معمل الصابون ، كما تذكرت والدي ، وفتاة اخرى كثيرا ما كنت اخرج معها في تلك الايام . كان اسمها اليزابيت ، ولكنها كانت تأذن لي بان ادعوها « موتز » ، وحين كنت اقبلها كانت تضحك ، فاشعر بغبائي . لقد ارسلت اليها بعض البطاقات من الجبهة ، وارسلت هي الي بعض الطرود التي تحتوي على بسكوت من صنع المنزل ، كان يصل دائما محطما ، وارسلت الي كذلك سجائر وجرائد . وفي احدى رسائلها كتبت تقول : « انتم ايها الفتيان ستنتصرون ، وانا فخورة بانك هناك » .

ولكنني لم اكن قط فخورا بانني كنت هناك . وحينما كنت احصل على اجازة لم اعد اكتب اليها ، بل صرت اخرج مع ابنة بائع سجائر كان يقيم في بيتنا . كنت اعطي ابنة بائع السجائر صابونا مما كنت احضره معي من المعمل ، فتعطيني هي سجائر . وكنا نذهب الى السينما ، او الى الرقص . ومرة كان ابواها غائبين ، فاخذتني الى غرفتها . ودفعتها في الظلام على ديوان عريض. وما كدت انحني فوقها حتى اضاءت النور ، وضحكت في وجهي ضحكة ماكرة . ورأيت في الضوء صورة هتلر معلقة على الحائط : صورة فوتوغرافية ملونة ، ومن حول هتلر على الورق الملون بلون الورد صور رجال ذوي وجوه صلبة ، معلقة في شكل قلب ، كما رأيت بطاقات ملصقة بدبابيس .. رجال يلبسون خوذا فولاذية ، وكل صورهم مقصوصة من الصحف . فتركت الفتاة مستلقية على الديوان واشعلت سيجارة ، وغادرت الغرفة .

وفيما بعد كانت كلتا الفتاتين ترسلان الي بطاقات الى الجبهة تقولان فيها ان تصرفاتي معهما كانت سيئة . غير انني لم اجب ايا منهما .

لقد بقيت انتظر حنة فترة طويلة، دخنت خلالها عدة سجائر في قلب الظلام ، وعادت الى ذهني فيها اشياء كثيرة . وحين وضع المفتاح في القفل خشيت كل الخشية ان اقف وانظر الى وجهها . وسمعتها تفتح باب غرفتها ، وتدندن وهي تسير في الغرفة جيئة وذهابا . وبعد ذلك نهضت ورحت انتظر على قرص

# ولادة حب

لك الحب قولي متى نلتقي — مع الحلم والامل المورق
اوان الربيع انفلات لخصرك — بين البنفسج والزنبق
عشقت غدي في مدى الامنيات — وانت مدى غدي المطلق
احبك اما حصدت النجوم — بجفنيك في موطني الازرق
انا من نجومك لا اشتهي — سوى اللحظ سهما فهيا ارشقي
لك القلب في الصدر طير شقي — فجوري عليه ولا تشفقي
اما اقسم القلب ان لا يغنيك — الا على آه مفرورق

احبك يا عودة لربيعي — ويا صحوة الطيب في المشرق
احس بعينيك زهو السفوح — وشوق الشواطىء للزورق
فانك انقى من النار ، انقى — من الطيف يلهو بهدب نقي
اجلك في الحب ان تصبحي — جحيما من الشبق المحرق

فرشت لك العمر بالياسمين — وطوقت روحك بالزنبق
وعتقت لي سكرة امرعتها — الليالي مدى جفنك الريق
فخففت المصير اذا ما رشفت — ومن يقتحم مقلة يغرق
فان جنون الزنابق عرس — طيوبا سينشر مهما بقي
وان غرامي الجديد سيبقى — مع الليل ، مع صبحه المونق
لانت انبثاق الغرام بقلبي — فلولاك قلبي لم يخلق

موسى المعلوف



الدرج . وفجأة ساد الصمت في غرفتها : لم تعد تسير جيئة وذهابا ، ولا عادت تغني . وخشيت ان ادق على الباب .

لقد سمعت اليوغوسلافي الضخم الجثة يدمدم همسا ، ويسير ذهابا وايابا في غرفته ، كما سمعت الماء يغلي في مطبخ صاحبة المنزل ، اما في غرفة حنة فقد كان كل شيء ساكنا ، ومن خلال باب غرفتي المفتوح رايت على ورق الحائط البقع السوداء العديدة التي تركتها اعقاب السجائر التي كنت اقذف بها على الحائط .

واضطجع اليوغوسلافي الضخم على سريره ، فلم اعد اسمع وقع اقدامه ، ولكنني كنت اسمعه يدمدم فقط . ولم يعد الابريق يغلي في مطبخ صاحبة المنزل ، بل سمعت الغطاء المعدني حين وضعته السيدة على ابريق القهوة . وفي غرفة حنة كان كل شيء ما يزال ساكنا . وقد خطر لي انها قد تخبرني فيما بعد بكل ما يدور في خلدها وانا واقف خلف باب غرفتها . وقد حدثتني فعلا بكل شيء فيما بعد .

ونظرت الى الصورة المعلقة الى جانب الباب :

بحيرة فضية تترقرق صفحتها ، وقد خرجت من قلبها حورية ، شعرها مبلول اشقر ، وهي تبتسم لفتى قروي كان يقف مختبئا في وسط غابات شديدة الخضرة . واستطعت ان اری نصف ثدي الحورية الايمن ، وكان عنقها شديد البياض .

لست ادرى بالضبط متى تم ذلك ، ولكنني بعدئذ وضعت يدي على مقبض الباب . وحتى قبل أن اضغط عليه وادفع الباب ببطء فافتحه ، عرفت ان حنة كانت هي فتاتي : كان وجهها مغطى باكمله ببقع صغيرة ضاربة الى الزرقة .

وتصاعدت من غرفتها رائحة فطر مطهو في طنجرة .

وفتحت الباب على مصراعيه ، ووضعت يدي على كتف حنة ، وحاولت ان ابتسم .

عمان — عيسى الناعوري

# التعبير الشعري عند زهير

بقلم عيسى ميخائيل سابا

* * *

الشعر لحن وصورة وتعبير ، فان خلا من المثلث هذا كان كلاما موزونا ، لا معنى له ، والشعر مأخوذ من الشعور ، يحس الشاعر بما حوله فيتأثر فيجري الكلام على اسلات لسانه لحنا مفرحا يأخذ بمجامع القلب ، او لحنا محزنا ، فيعصر الفؤاد ويدمع العينين . وكم من بيت شعر استفز السامع وبعث فيه حماسة ، وبيت جعله يتأمل ويأخذ بمعناه ويعمل بحكمته .

فمن من شعراء الجاهلية نرى عندهم هذا كله او اقله ، اما شاعر الحكمة فمعروف وهو صاحب من ومن ومن ، زهير بن ابي سلمى ثالث فحول الطبقة الاولى من الشعراء الجاهليين وعليه نعقد الحديث ، يتميز شعره ليس بالحكمة حسب بل بعفة القول وايجاز اللفظ ، ووصف الواقع ، وهو ان قصر في الخيال ، فلا يقصر بتأدية المعنى الكبير بكلام وجيز . والحكم عنده مستمدة من واقع الحال ، من بيئته ، مما كان يجري على السنة الناس ، من امثال وحكم مصدرهما التجارب والاختبار ، لا التأمل بالطبيعة والافلاك . وطبيعة الصحراء لا تبعث على التأمل لعدم تعدد مناظرها ، وهي رتيبة على منوال واحد غير متغير .

فشعر زهير صورة لما كان يجول في خاطره ، من حب السلام وحجب للدماء ، وكراهية للحرب على حد قوله :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم    وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها ، تبعثوها ذميمة    وتضر اذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثقالها    وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم

وان نحن نظرنا في ديوانه وجدناه يشيد بمدح وحيه هرم بن سنان والحارث بن عوف لسعيهما الموفق بالصلح بين عبس وذبيان ، في ايام داحس والغبراء ، وقد تحملا ديات القتلى وقيل انها بلغت ثلاثة آلاف بعير :

يمينا لنعم السيدان وجدتما    على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما    تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

والتعبير في شعره واضح بين يجريه على اسلات لسانه هينا ، لينا ، مبينا ما يجول في خاطره ، ومن فضلة القلب يتكلم اللسان :

تزود الى يوم الممات فانه    وان كرهته النفس آخر موعد

ويفصل لنا الحق في ثلاثة مقاطع :

وان الحق مقطعه ثلاث    يمين او نفار او جلاء

ومن اجل هذا البيت دعي بقاضي الجاهلية ، وقد اراد بالمقاطع اليمين او المنافرة الى حاكم يقطع بالبينات او الجلاء وهو بيان وبرهان بجلوبه الحق وتتضح الدعوى . والى جانب هذا نتبين في شعره الورع والتدين وايمانه بالبعث والحساب واليوم الاخر :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم    لتخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر    ليوم الحساب او يعجل فينقم

وان نحن نظرنا في ما ذكرت المجاميع الادبية عنه كالاغاني والشعر الشعراء وطبقات الشعراء وغيرها ، نراهم يجمعون على ان زهيرا احد الثلاثة الشعراء المقدمين على سواهم . ويفضله غير واحد على صاحبيه امرىء القيس والنابغة الذبياني ، لتعبيره الشعري السهل وللايجاز وحذف الفضول وحشو الكلام ، فيودع اللفظ اليسير في المعنى الكثير :

فما يك من خير اتوه فانما    توارثه آباء آبائهم قبل

ولمدحه الجيد وتجنبه الكذب ، فما كان يمدح احدا الا بما فيه من خلق رضي وبسطة كف وغيرة :

على مكثريهم رزق من يعتريهم    وعند المقلين السماحة والبذل

ولابتعاده عن التعقيد اللفظي والمعنوي وحوشي الكلام فما كان يعاظل فيه اي لا يداخل الكلام ويعقده والبك قوله :

ولو ان حمدا يخلد الناس اخلدوا    ولكن حمد الناس بمخلد

فشعره على الجملة يقل فيه الهجاء والهذر ، فهو لا يتناول به الا الصراحة والصدق ، فيضرب الامثال ، وياتي بالحكم لتقريرها في الذهن فعنده المعنى الكثير كما قلنا باللفظ اليسير مثاله :

قد جعل المبتغون الخير في هرم    والسائلون الى ابوابه طرقا
من يلق يوما على علاته هرما    يلق السماحة منه والندى خلقا
لو نال حي من الدنيا بمكرمة    افق السماء لنالت كفه الافقا

فالصور عنده واضحة والتعبير جلي وان قصر في الخيال فلم يقصر بالتعبير . وقد انتزعه من الحياة الجاهلية والبيئة البدوية المفاخرة بشرب الخمر وقد برأ ممدوحه منها نوعا فقال :

وابيض فياض يداه غمامة    على معتفيه ما تغب فواضله
اخي ثقة لا تهلك الخمر ماله    ولكنه قد يهلك المال نائله

واليك بيتا اتفق العلماء قديما على انه امدح بيت :

تراه اذا ما جئته متهللا    كانك تعطيه الذي انت سائله

ومما يتمثل به من اقواله :

وهل ينبت الخطي الا وشيجه    وتغرس الا في منابتها النخل

ونحن نرى التعبير الشعري عنده يتمشى وروحه المطمئنة بدون تعمل وكد قريحة ، فلفته متينة وتركيبه آخذ بعضه برقاب بعض ، وهو وان اكثر الغريب في شعره

# هباء

بحنين اللالون كان اللقاء ؟ … اي حلم نشرته للعفاء ؟
كان احلى ، لو لم ازرك ، فما ابقيت … للوهم من عطور الوفاء ؟
لفتة اخت ارزة شمساء … آه يا ثلج .. بعض هذا الشتاء !
في عروقي احس شيئا جديدا … كنت عريته من الاسماء
اين ارضي ؟ زرعت ارضي في … الملح فصارت سفينة خضراء ؟
لهف نفسي . النسر نفسي ، ولكن … اثقلته حديدة زرقاء !
لا تعجل يا صحو ! دعني ارى .. … انني ارى العمر كله للهباء

# كائن الابعاد

•

وحرقت النهار . كانت فراشات … من النهر عائدات الي
تحت انقاضه رأيت كثيرا : … اعيني ، اضلعي ، الزمان الفي
قلت : شعري ارى؟ ايحرق شعري ؟ … كان شعري للناس خيرا غنيا
ولمست الرماد . لما يزل يشرب … سمعي من الرماد الندوي
برعمت الف فكرة . نبع الدرب . … تذكرته المضي المنسي
والتلاوين من طفولتي البيضاء … عادت الي تحنو علي
بابتسام دنت . واطفات الضوء … وقالت : « انظر الى عيني
انني ... » واقتربت . قبلتها . … قبلتها . والدموع في مقلتي
قالت : « الان . لا تقل انني … ساحرة . لا تقل لكي انا احيا »
وتوارت تقول : « اكتب ، ولا تحرق … غدا يعرفونك العبقري »
وانا اسبل الجفون تلمست … طريقا في داخلي سريا ..

حلب

علي الزيبق



فهو بالنسبة الى جيله وعصره غير غريب ولكنه غريب على ابناء جيلنا . فغريبه كان بينا ظاهرا عند ابناء عصره .

وقل ان تقع على قصيدة له بدون ان يبادرك بحكمة او بمثل ، وان خلت من جمال العبارة فلا تخلو من حسن التركيب والصورة :

وذي نسب ناء بعيد وصلته … بمال وما يدري بانك واصله
وذي نعمة تممتها وشكرتها … وخصم يكاد يغلب الحق باطله

فهو في حكمه وامثاله شاعر حكيم وخطيب مصقع يدعو الى العمل الصالح ، وقاض منصف ، لا يرغب لقومه الا تألف القلوب والعيش الرغيد ، وصفاء النية والكسب الحلال .

ومما يروى عن عمر بن الخطاب الخليفة الراشدي العادل ، قال لبعض ولد هرم « انشدني بعض مدح زهير اباك» فانشده، فقال «ان كان ليحسن فيكم القول» فاجابه « ونحن ان كنا لنحسن له العطاء » : « قد ذهب ما اعطيتموه وبقي ما اعطاكم » . ومن هنا نعلم ان الخلود لا يكون بالمال وهو فان وانما الخلود بما يتركه المرء من اثر فكري وقول حكيم ، ومبرة تنطق بالعمل الصالح وحب الخير الشامل .

عيسى ميخائيل سابا



عبد العزيز جادو

# الرقابة والرقيب

بقلم عبد العزيز جـادو

* * *

الرقابة في الواقع بدأت أول ما بدأت في جنات عدن ، وكانت مفروضة يومئذ على التفاحة . وما كانت حواء تميل الى التفاح على وجه الخصوص ، وما كان التفاح ليجتذبها شكله ولا طعمه ، فكم كان لديها من اشياء ألذ وأمتع . وكم كان لديها من صنوف مما لم تره عين ولم تسمع به اذن . وكان كل هذا كفيلا بابعادها عن مجرد التفكير في التحقق أو التأكد من طعم التفاحة ماذا سيكون . وربما لم يخطر لها هذا التفكير على بال الا حينما قيل لها ان التفاحة انما هي فاكهة محرمة . اذن ، فلن يقر قرارها ولن يهدأ بالها حتى تقضمها لتذوقها ، وليكن ما يكون ..

والعالم اليوم اشبه شيء بذلك . ونحن اذا ما اعطينا كل التفاح الذي نريده ونشتهيه فستعافه نفوسنا ولن نلتفت اليه ولن نهتم به . اما اذا امرنا بالابتعاد عنه وعدم لمسه ، فهذا شيء لا يطاق ولا يمكن مقاومته بأية حال ، ولا بد اذن من تخطي العقبات ، وقل بعد ذلك على التفاح العفاء .

هل يمكنك ان تستعيد الى ذاكرتك كيف كان شعورك وانت طفل ، عندما كنت تؤمن بعدم الاقتراب من الحلوى التي في دولاب الكرار ؟ هل تذكر ذلك الدولاب الذي كان يحكم غلقه بالضبة والمفتاح ؟ وكيف كنت تترقب الفرص لكي تختلس نظرة تستشف بها ما بداخله ؟ ثم رف الكتب ! اتذكر عندما قال لك ابوك : « ان هذه الكتب يا بني للكبار فقط وليست للصغار الذين في سنك فلا تقربها ولا تشغل بها مخك حتى تكبر .. وحينئذ يمكنك ان تستمتع بقراءتها » ؟

انا شخصيا قد اجتزت هذه الاشياء ، واعتقد انك ايضا قد اجتزتها ، بل لقد اجتازها الجميع بلا استثناء . واني اعرف صديقا اعتاد ان يستعير الكتب من المكتبات العامة ليقتصد ثمن شرائها ، ولكنه مع ذلك ، كلما سمع ان هناك كتابا صودر او ان المسئولين اوقفوا توزيعه ، لا يني عن السعي في الحصول على نسخة منه حتى ولو كلفته اضعاف ثمنها . « وكل ممنوع مرغوب » .

هذا هو عمل الرقابة ، وهذا هو اثرها وتأثيرها ! .. فهي تحدد للشخص ما يجب وما لا يجب . وتفرض عليه ما ينبغي وما لا ينبغي . والانسان بطبيعته يريد ان يأخذ اكثر من حقه ، انه لا يريد ان يحصل على اكثر مما هو موجود في الدنيا فحسب ، ولكنه يريد ان يحصل على ما ليس له وجود في الدنيا ..

ثم ان هناك مقاييس ادبية وخلقية ضرورية ولا شك ، فلا يمكن لاي جمعية او جماعة ان تعيش وان تستمر في تأدية رسالتها بدون هذه المقاييس . هذه المقاييس هي التي تجعلنا نقف سدا منيعا ضد كل ما يخالف العرف وكل ما هو خارج عن المألوف . فانت بكل بساطة لا يمكن ان تسمح بأي حال لمنتجي الافلام ان يعملوا ما يحلو لهم والا فستري عجبا اي عجب . ولا يمكن ان تترك لنا شري الكتب ولا لعارضي اللوحات الزيتية ولا لمخرجي المسرحيات مطلق الحرية لعمل ما يحلو لهم . ولئن فعلت فسيتمادى بعضهم بكل تأكيد في استغلال هذه الحرية فيما يشين بتخطي السدود ، والذهاب الى ابعد الحدود ، مما تحمر له الوجوه .

ولا يزال هناك ــ للاسف الشديد ــ بعض اناس لا يتأخرون عن تقديم او نشر اشياء يحوطها الغموض وتثير الشكوك . ولا يتورعون عن ابداء امور ليس من الذوق ابداؤها . ولا يستحون من التمادي في وصف المباذل على طريقة الادب المكشوف . ويستبيحون لانفسهم الخوض في مسائل لا يستحب الخوض فيها ، ولا سيما اذا كانت بالطريقة المزرية التي يسلكونها .

والرقابة انما تهتم على وجه الخصوص باخلاقنا الشخصية ، وآدابنا ، ولا سيما في المسائل التي لها صلة بالجنس . فاذا لم نراع الذوق والاحتشام فيما نكتب ولو كان عن طريق المجاز والاستعارة ، فالرقابة هنا لا بد ان تصدنا ولها الحق في ان تصفعنا على وجوهنا مراعية في ذلك العدل والانصاف .

والناس جميعا ، سواء اكانوا ذكورا ام اناثا ، عندهم الغرائز الهمجية غير المستأنسة . وانهم ليعتمدون على تلك الميول الموروثة التي انتقلت من السلف الى الخلف منذ العصور البدائية . ولما كانت تلك الميول مخالفة

للقوانين ، وممنوعة منعا باتا فقد احكم ضبطها وصار من السهل التحكم في امرها حتى اصبحت مشتركة بين الجماعة ، مشاعة بين الناس . وبمرور الزمن وتعاقب الاجيال ، ومع التمرين الذي تمرسنا به منذ الطفولة ، تعلمت الاغلبية اخضاع غرائزها الضارية وكبح جماحها .

فانت اليوم اذا اردت شيئا في حوزة صديق لك فلن يضطرك الامر الى ان تقتل صديقك لكي تنهب او تسلب منه هذا الشيء . فهناك سجون وقضبان حديدية لمثل هذا التصرف . ولقد سنت الهيئات الاجتماعية القوانين والتشريعات وفرضت عقابا لاولئك الذين لم يتعلموا كيف يحكمون انفسهم ويتحكمون في تصرفاتهم .

وتنظيم الجنس او تقويمه انما هو من اصعب الامور التي تعالجها الهيئة الاجتماعية والفرد على السواء . والامور التي تتعلق بالجنس تثير الفضول وحب الاستطلاع اكثر من اي عامل آخر . ولكننا مع ذلك نشمئز من اي فرد او اي مجموعة من الافراد اذا لم يراعوا في محادثاتهم عدم المساس بما يخل بالشرف او اذا اتجهوا في احاديثهم الى ما يشين او ما يخدش الشعور او ما لا يصح ان يقال . ولكم يثير في نفوسنا من السخط والاستياء ما نقراه احيانا لبعض الكتاب من المباذل والمجون ما يندى له الجبين .

وهنا يبرز امامنا سؤال عما اذا كان الذوق الاجتماعي يتطلب منا درجات من الكبت الجنسي حتى في المصنفات الادبية والتمثيليات النيرة والافلام السينمائية التي قد لا تكون صمامات امن جيدة . والطب ، على اية حال ، يدرك تماما ان الفرد يمكن ان يعاني ارقا او قلقا او خوفا او جملة من الاعراض العصبية الاخرى بسبب التعبير عن الجنس بطريقة خاطئة ، او بوسيلة سيئة غير منظمة وغير مجدية . فهل من الخير ان ينطلق هذا البخار الزائر عن طريق مسرحية او كتاب او فيلم ؟

نستطيع ان نقول « نعم » كما نستطيع ايضا ان نقول « لا » .. نقول « نعم » على شريطة ان يكون الانتاج ، بغض النظر عن نوعه ، مصورا بوضوح لمسائل الحياة الحيوية ، يلجأ بحق الى الحياة ويلتصق بالحياة . وهو بعد لا يكون متنفسا مأمونا ومنفذا امينا للعواطف المكبوتة فحسب ، ولكنه يغدو ايضا طاقة ادبية ، خلاقة .

ونقول « لا » اذا كان هذا الانتاج يشوه الحقائق او يحرفها ، ويكذب على الحياة وعلى الطبيعة ، ويقدم ما يخالف الواقع ، فتكون النتائج حينئذ أثيمة ، والعواقب وخيمة .

وليس هناك من آذته الدعوة الى الحق ، او أساء اليه افشاء الحقيقة ، بشرط ان تكون الحقيقة كلها هي التي قبلت ولا شيء غيرها ، مما يتنافى مع الذوق واللياقة ، ويمس الاحساس ويجرح الشعور . لان تشويه الحقيقة والتحريف المتعمد لمعناها ليس من شأنه الا خلق هزة او رجعة تهز المشاعر . وهذا هو أس الضلال وجالب الضرر والجهل بالحقائق لم يكن ابدا في اي وقت من الاوقات واقيا اكيدا للاخلاق او دافعا للاذى . ولكن المعرفه ، هي الواقية والمانعة للشر ، بشرط ان تبين بوضوح ان الحلم والتسامح والصفح كلها تؤدي الى نتائج نافعه غير مخربة ولا جالبة للنوائب ! ..

وتركيبنا الخلقي بعضه يرجع الى الوراثة ، وبعضه الاخر الى التمرين المبكر . وهذا التمرين بدون شك له اهميته التي يعتد بها . وعلى هذا فالعادات الحسنة شانها كشأن العادات السيئة كلتاهما تكونها الاخلاق .

ولكن اذا لم تكن العادات الحسنة مؤسسة ومبنية على ملاحظة للحياة صادقة وثابتة فهي لا ترسي الا اساسا مزعزعا فرعا للسلوك الاخلاقي .

والروايات التمثيلية والسينمائية والكتب ، لها بطبيعة الحال ، قيمتها التثقيفية . فهي تحلل الحياة ، وهي تشرحها ، وهي تقلب او تستجوب او تفلسف اساليب التفكير ومناهج العمل التي اسست منذ قديم ، وهي غالبا ما تكون نواة للمستقبل ، وهي كثيرا ما تنبيء عما هو آت . وهي لا بد ايضا ان تعالج بشجاعة وبجراة وبلا خوف او وجل مسائل الجنس بانواعها المتعددة .

وهي بالضرورة تتحدى وتناهض وتدعو الى النزال والجدال والنقاش فيما يمكن ان تنبش عنه وتستخرجه وتعلنه . وقد لا يخلو هذا ، في بعض الاحيان ، من ضرر او اذى . ولكنها اولا واخيرا ودائما ، الحقيقة التي يجب ان تعرف وان ترسم وتصور وترى ، فهي عظم الحياة ونخاعها ، وهي لحمتها وسداها .

والزيغ او الانحراف عن طريق الفن القويم المستقيم ، ليس من المحتم ان يجعل هذا الانتاج فاسدا او غثا او غير ادبي . فقد يكون من اوضح واخلص وارق انواع التسلية واكثرها صراحة ، وقد يكون في هذا الانتاج شيء من النفع والفائدة . حتى ان المسائل الجنسية الابدية اذا قدمت بعدل واعتدال وانصاف فلن يأت منها اي ضرر يعول عليه ولن يحدث منها اي اذى .

ولكن من المؤكد انه سيكون هناك استمرار ومواظبة على خلق تمثيليات تمس الذوق والشعور . كما سيكون هناك ايضا بعض الافلام وبعض الكتب التي تقوم بهذه المحاولة . اما اولئك الذين يذهبون الى ابعد الحدود فيما يكتبون او فيما يعرضون فسيستمرون في السير في طريقهم الى محاولة انتهاز فرصة حنيننا المكبوت وتشوقنا المكظوم ، وانحرافنا الراقد . او بمعنى آخر انهم يستفيدون من ضعفنا . وكلما كانت عندهم القدرة على تلوين هذا الضعف عن اثارة العواطف ، وتحريك الاحساس ، كلما كانت الفائدة اكثر لملء جيوبهم وزيادة رصيدهم .

ومن الطريف ، ان احد الدوافع القوية التي نمتلكها ، تلهمنا بل وتستثيرنا للكشف عن كل ما يمكننا الكشف عنه . فالمجهول يروعنا ويهز مشاعرنا . والامكانيات توقد

الخيال . وكتب اللهو والتسلية انما هي كالولائم المغرية تجتذبنا اليها كالمغنطيس .

وهذه الاعمال ، كيفما تكون ، لا بد مخيبة للامال ، مخلفة للظنون . فأولئك الذين يشاهدون هذه الاعمال ان كانت من المرئيات ، او الذين يقرأونها ان كانت من المؤلفات ، لا يلبثون ان يضيقوا بها ذرعا ويزهدون فيها ، بل ويضجرون منها . واسرع طريقة يمكن ان نتعلم بها كيفية القبض على زمام الدوافع والمثيرات السقيمة بالكبح والقمع هي ان نلم بكل هذه الاعمال ونكون على علم ودراية بالكتب التي لا يعرف مؤلفوها شيئا عن الذوق السليم .

ومهما يكن من شيء ، فقد تعلم الناس ، رجالا ونساء ، كيف يضبطون مشتهياتهم المرضية . فلقد علمتهم تجارب الحياة ان ليس هناك ما يمكن الحصول عليه من الاذعان او الاستسلام الى الدوافع الحقيرة ، الدنيئة ، الا الشعور بالهوان واهدار القيم الانسانية ، وتلويث السمعة ، واهدار الكرامة .. ولقد اصبحت الكتابات الجنسية من الاشياء المبتذلة ، الممتهنة ، التي تعافها النفس ويمجها الذوق ، وباتت من الامور التي لا يرضى بها احد قط ومن الاشياء الكريهة التي يشمئز منها الذوق .

وهنا يعترضنا سؤال عن الذوق مرة اخرى ... لقد خلقنا ، لسوء الحظ ، انا وانت والجميع لكي نقاسي ونتألم ونتعذب بسبب قصور محقق ، فعلا ، لم يكتمل نضجه بعد ولم يتم نموه . وقد يقول قائل ان التصور الشائع والمبتذل يجبر على طاعة الاغلبية المؤدبة ذات العفة والحشمة . وهذا حق ، فعلا ، من جهة معظم القوانين في كتب الشريعة . او لم يكن ثمة لصوص لما اضطر الامناء لتحميل رجال الشرطة مشقة المراقبة والهيمنة .

ولو لم يوجد جنون السرعة ما كان هناك من حاجة الى قوانين تحد من سرعة السيارات لكذا كيلو متر في الساعة . وما كان هناك اي احتياج لما يسمى « قلم مرور » ولا لجندي الشرطة في قسم المرور – يفتح المرور ويغلقه ويقيد مخالفات لمن يعصون توجيهه . ولولا وجود اناس اتخذوا من الرقيق الابيض تجارة لهم ، ومن العهارة والبغاء متكسبا لهم ، لما كانت الرقابة من المسائل الضرورية ، وعلى صورة مشددة .

فنحن لا يزال فينا الفاسد والفاجر ، ولا يزال فينا اناس ليسوا على شيء من الادب او الحياء . بالرغم من النصائح والتعاليم الدينية والتوجيهات التي يبثها رجال الاصلاح . ولكننا حتما مراهقون ، وكالاطفال ، نشتهي كل ممنوع ، ونتوق كثيرا الى ان نفعل ما قررت اللوائح القانونية والنظم الشرعية الزامنا بعدم فعله .

وحينما يقال كل شيء ، ويفعل كل شيء ، يتأثر اناس متفاوتون تأثرا متفاوتا بمؤثرات معينة . وبمعنى آخر ، يمكن ان تعتبر احدى القصص عند البعض خليعة فاسدة ، وعند البعض ادبية ، وعند البعض الاخر موجهة هادفة .

اذن لا يمكن ان يكون ثمة فرد او مجموعة افراد يجتمعون للحكم على اية مسرحية او اي كتاب ويكونون في حكمهم متساوين او منصفين عدول . لان فكرتهم ستتكون ، على الاكثر ، حسب سيكولوجيتهم الفردية . فمن الواضح جدا ان نعرف كيف ان رجلا في لجنة الرقباء يمكن ان يتأثر ، مثلا ، من قصة عن امراة ادمنت على الشراب ، اذا حدث وكانت امراته او احدى قريباته تعاني نفس الحالة . ونحن اذا تأملنا جيدا ودققنا باهتمام في مسألة الرقابة من جميع الزوايا ، فسنصل حتما الى النتيجة بانها ضارة ومؤذية .

ماذا اذن ؟ ان الشيء الوحيد الذي يمكن ان يساعدنا على تقديم الاحترام والتبجيل للذوق السليم هو الارتقاء بالراي العام الذي يرضى باحتضانها ويميل الى معاونتها والتكفل بها . ولكن كيف نستطيع ان نخلق او نكون هذا الراي العام ؟

وهنا ، دون شك ، يبرز سؤال فرد من الافراد : اننا اذا لم نراقب انفسنا ، واذا لم يردع معظمنا الميول الهمجية التي تحاول دائما ان تحقق نفسها وتثبت وجودها في كل رجل وامراة وكل طفل ، لكان التحصيل الاشتراكي كتحسين سلامة الذوق في الاغلبية ، هراء في الهواء ، او صرخة في فلاة . والنقطة ، مع ذلك ، هي انها في الواقع تدفع الفرد بالرغم منه الى تحسين حاسة الذوق عنده . حتى يقل احتمال حدوث شيء ضار كأن يدوس على اصابع اقدام جيرانه او ان ينتهك حرمة زملائه ، او يعتدي على حقوق الغير . والذوق يجعل الشخص مقبولا لدى الاخرين ، مرضيا عنه . كما انه يؤدي الى التعاون والتآزر في مساعدة البعض للبعض من اجل الاصلاح الاجتماعي ، والرقي الادبي .. والذوق ، باختصار احد الدوافع الثقافية العظيمة التي يمكن اقتناؤها .

ومسألة خلق الذوق او تكوينه تتطلب ، بطبيعة الحال ، التمكن منه في سن مبكرة من الطفولة ونسأل بعد ذلك عن القدر الذي نكبح به الطفل ونقمعه كم يكون ، والى اي مدى نتركه يروح عن نفسه بطريقته البدائية ، والى اي حد نتركه لنزواته الفطرية ، فهذه قضية معقدة ، ومسألة من الصعب حلها ، ولا يمكن الاتفاق بشأنها او الوصول الى تسوية مقنعة او قرار حاسم فيها يكون فيه فصل الخلاف . نعم .. الى اي درجة ، يجب ان نلقن الطفل ونعلمه كيف يكون على نفسه رقيبا ؟ ..

ان اطباء الامراض العصبية واطباء الامراض العقلية معا يعرفون تماما ما هي الافات والسيئات التي يمكن ان تتدفق من الرقابة الذاتية التي تزيد عن الحد المألوف . ومن المؤكد ان شعورنا بالاثم والخطيئة ، واعتقادنا بالدونية واحساسنا بالدناءة والانحطاط والتأنيب الذاتي ، وغير ذلك من الاعراض العصبية انما تتدفق كلها من هذا المنبع العام .

# لماذا ؟

لماذا اتيت
بهمسة حب حنون
تغير مجرى حياتي
تغير ذاتي
اتعلم ان حياتي بكاء
وقلبي جماد
وعمري ارتحال
واني اغير نفسي
بشيء بسيط
بهمسة حب تقال

لماذا اتيت ؟
أجئت لابكي اليك
لاندب عمري
لابكي اليك
أجئت لابكي اليك
تنور شمسا
وشمسي تطفا ؟
أجئت
تفاجئني في رقادي
بحلم الرجاء
تراني افاجا ؟
صباحك من اي فجر

وانت
وزورق حبك
من اي مرفا ؟
يقال :
خمورك تروي
ففي اي امسية قيل
اني اظما ؟
واني احرق قلبي
اجئت تجدد قلبي

تجدد مطفا ؟

اتعلم اني ليل طويل
طويل ..
وغصة روح
وحسره
فجئت تجدد قلبي
تجدد زهره
لماذا اتيت ؟

انتظرتك امس
بباب الشتاء
مع الليل والزمهرير المخيف
وجئت
ركضت اليك
بكيت
انتحرت بصدرك
كنت لطيف
الم ترني ؟
غلتي من جراد
وكاسي تراب
وزادي رغيف
واني احس
بجوع عنيف
واني اخيف
لماذا تجيء الي
لماذا ؟
الم يكفني بعد
هذا الخريف

الكورة ــ لبنان ادوار الزغبي



---

اما اننا نكبت لاننا نخاف من مواجهة الحقائق او الظروف فهذا احد الامور . واما اننا نكبت ، من جهة اخرى ، عن علم ومعرفة وبوعي وشعور وبفهم كامل باننا لسنا منبوذين او مكروهين ــ واننا بكلمة اخرى ، نكبت للخير العام وللمصلحة الاجتماعية ــ فهذا شيء آخر !!

والجهل والخوف مضافا اليهما الخجل والحياء ، ممزوجين بالقمع مع الرقابة الذاتية ــ كل ذلك مبعث الضرر والاذى . ولكن ليس ثمة اي انسان يناله اي اذى او يمسه اي سوء اذا هو ردع نفسه وكبحها عن علم ودراية وبحكمة وفطنة وادراك . فلا يعاني من الذاتية المكبوتة ولا يقع تحت صراع نفسي يعجز « الانا » عن مواجهته فيتجاهله فيلوذ باعماق اللاشعور . فهو حينئذ يوقف سيارته عند كل اشارة حمراء ، حتى ولو كان القائم بتنفيذالقانون ليس موجودا .

نعم ، ليكن عندنا ذوق ، ولنكن ذوي حساسية بالنسبة لهذا الواجب من الرقابة ، ولنعمل بما قال وليم جيمس العالم النفساني الشهير : « لنكن عمليين » وهو انما يقصد بهذا ان ننتمي الى المذهب العملي ، مذهب الذرائع ، المذهب القائل بان اهمية المبادىء في نتائجها العملية .

ولكي نكون عمليين في هذه الحاسة ، علينا ان نتخذ قاعدة للسلوك ، ونربي في انفسنا نظاما للعادات ، ويكون لنا ميزات وخاصيات نكتشفها في ذواتنا لننتفع بها ، ( وكل امرىء رهن بما يؤدي ) . وفي هذه الحالة يغدو الشخص اكثر قبولا . وهذا هو الطريق الذي يجب ان ينتهي اليه .

ونحن في الواقع لا يمكن ان نعمل غير ذلك . ويجب ان نكبح جماح انفسنا ، ونكون رقباء عليها باية كيفية وباية حال من الاحوال . واذا لم نفعل ذلك فستكون دنيانا اكثر فوضى ، يضرب في اطنابها الاضطراب كما يجب الا يقف احدنا في وجه الاخر ، ولا يصده عن سواء السبيل .

الاسكندرية عبد العزيز جادو

المسرح والهزل في قصر العدل في فرنسا

# القضاة والدعابة

بقلم جان بول لاكروى

ترجمة سمير شيخاني

* * *

في محكمة الجنح يمكن العدالة ان ترتاح وترخي العنان لنفسها ، فتنزع عن وجهها قناع المأساة لتبدو كما هي في الواقع : اما فتاة طيبة ، او شرسة ، وذلك حسب طبيعة القاضي الذي يمثلها او مزاجه ! ..

وهنا ، في الواقع ، البطل ليس المتهم ، كما هي الحال في محكمة الجنايات ، ولا حتى المحامي ، بل البطل هو القاضي .

وعلى ذلك فان اكثر رؤساء محكمة الجنح هم اناس حيويون الى أبعد حدود الحيوية ، لا فرق بين اولئك المتذمرين منهم ، أو نافذي الصبر ، أو الفكهين محبي الدعابة ! فبوسعهم ان يكونوا كذلك ، وساعة يشاؤون يمكنهم ان يسمحوا لانفسهم بارسال النكات والاقوال الساخرة أثناء الجلسات . ذلك بأنه ليس في ايديهم الحياة او الموت كما هي الحال مع رؤساء محكمة جنيف . فالاحكام التي يصدرونها تتراوح بين ايام في السجن او شهور ، او حتى لا تتعدى الغرامات النقدية . وهذه مجموعة من الطرائف والنوادر التي كانت محكمة الجنح مسرحا لها .

* حوار بين متهم وقاض :

ــ سيدي الرئيس ، انا لم افكر .

ــ كان ينبغي لك ان تفكر ،ياصديقي . واذا كان للرجل رئيس كالدبوس ، فذلك لكي يحول بينه وبين الذهاب بعيدا

* قول منطقي لاحد القضاة :

ــ ان المتهم سيتعلم على حسابه ان أشكال العدالة اقل جمالا ومتعة من اشكال السيدة بران الارملة ، المدعية ، التي داعبها بكل وقاحة في ممشى مظلم ، ليلة الثامن من كانون الاول الفائت ! ..

* كان احد المحامين يترافع منذ ثلاث ساعات مفرقا هيئة المحكمة والسامعين بخضم من التشريعات، حتى قال: « وسأتلو على مسامعكم أيها السادة نصا آخر هو السابع عشر في هذه الجلسة ، وقد اصدرته في ٣ ايار سنة ١٨٩١ محكمة اوليان ... »

وهنا قاطعه الرئيس بيريفييه بقوله : « أورليان ، توقف مدة خمس دقائق . رفعت الجلسة . » ( أورليان هي في باريس احدى محطات السكة الحديدية . )

* قال احد القضاة لمتهم بقيادة السيارة وهو في حالة السكر : « قرأت في التقرير الطبي أن هناك في الواقع قليلا من الدم في خمرك .. وهذه هي المرة الثالثة التي يحدث لك فيها مثل ذلك . »

* اطال المحامي دفاعه، فقال له الرئيس ميل: «اختصر» فأجابه :

ــ كما تشاء ، يا سيدي الرئيس ، فأنا لم ارغب في العجلة لكي أتيح الوقت الكافي لخصمي المتأخر ان يصل في الموعد المناسب . والواقع اني حاولت ان أمتع المحكمة قليلا في هذه الاثناء .

* قال القاضي :

ــ في المستقبل دعك من هذا الامر ، فالمحكمة تحب ان تختار بنفسها وسائل متعتها !

* ومن القضاة الساخرين ، المتهكمين بلطف ورقة نذكر الرئيس بول لوسيان فهو الذي قال في حيثيات احد الاحكام : « على الرغم من مرافعة الوكيل فاننا لا نعتبر المتهم مذنبا » . وفي احدى الدعاوي مس بسخريته الكورسيكيين الذين تنتهي اسماؤهم بلفظة « اي » . ولكنه سرعان ما تنبه ــ بعد فوات الاوان ــ الى ان المحامي الشهير مورو ــ جيافيري يجلس في مقعد الدفاع ، فاذا به يسارع الى القول والابتسامة على شفتيه :

ــ آه أيها الاستاذ ، لكم اعتذر منك . ولكن على سبيل معاقبتي اسمح لك بأن تطلق علي اسم باولو لوسياني .

* كان الرئيس ديليفون يحاكم سياسيا شابا طموحا يدعى غاستون داكوستا ، وكان هذا يرسل التحديات لمناسبة ولغير مناسبة مما حمل القاضي على تهديده بقوله :

ــ اذا انت واصلت تهجماتك على المحكمة فاني احكم ببراءتك .

* في احدى الدعاوى ( تضارب زوجين ادى الى جراح ) شدد محامي الزوجة على مظهر الزوج الدميم ، قائلا :

ــ صحيح انه يسمح للجميع بأن يكونوا على شيء من الدمامة ولكن ثمة حدودا ينبغي احترامها . حسنا ، ايها السادة ، ان هذه الحدود قد تجاوزها بجراءة تبلغ الوقاحة الزوج ! .. ايمكن ان يكون على وجه البسيطة امرؤ ابشع من الزوج هذا ؟

ــ استاذ ، انت نسيت نفسك ! ..

* قال القاضي للشاهدة :

ــ ما عمرك ، يا سيدتي ؟

ــ تسع وعشرون سنة .

ــ المعذرة ، انا لم اوضح نفسي ، ففي اي سنة ولدت ؟!

* وهذا حوار آخر بين متهم وقاض :

– سيدي الرئيس أن زوجتي تخونني مع جميع رجال المدينة . انا ملك المخدوعين !

– فهتف به القاضي :

– كن متواضعا ، يا هذا ، واذكر ان نابليون وموليير كانا قبلك كذلك .

* وبين قضاة محكمة الجنح الذين اشتهروا وتركوا اسما يتردد حتى اليوم ، يبرز اسم انقاضي روايبه، رئيس الغرفة الثانية عشرة الذي عرف باللقب الشهير « الرئيس دقيقة » . فالمحاكمات التي كان يترأسها ضربت الرقم القياسي في السرعة ، حتى أنه فصل مرة باربعين دعوى في سبعين دقيقة . كان ذلك يجري على الشكل التالي :

– الاسم؟ لا فائدة من ذلك فأنا اعرفه. اتعترف بالوقائع؟ لا ؟ الكلام لك يا محامي الدفاع ، فأوجز .

فما ان يتلفظ المحامي بجملته الثالثة حتى يقاطعه متلفظا بالحكم :

– ثلاثة اشهر ، وغرامة ستة آلاف فرنك . الى الدعوى التالية .

والواقع انه كان لدى الرئيس روايبه جدول للعقوبات فيه بعض الارقام من مثل ثلاثة اشهر سجن ، وستة آلاف فرنك غرامة ، او اربعة اشهر سجن وثمانية آلاف فرنك غرامة ، او ستة اشهر سجن و١٢ الف فرنك غرامة .

وحاول مرة محام يدعى فوريه ان يحتج على تصرفات هذا الرئيس فقال له :

– سيدي القاضي ، لقد نظمت دفاعي على الشكل التالي : ربع ساعة للمقدمة ، ونصف ساعة لعرض الوقائع ، وثلاثة ارباع الساعة للمناقشة وخمس دقائق للخاتمة ...

فقاطعه القاضي بقوله :

– ابدا بالخاتمة فالمحكمة تصغي اليك ..

* الا ان محاميا يدعى جورج بوران استطاع ان يقدم مرافعته بكاملها . فلما تدخل الرئيس روايبه طالبا اليه ان يختصر في كلامه ، نهض وتلفظ بكلمة واحدة هي : « الرحمة » . وعاد فجلس في مكانه . مما اضطر « الرئيس دقيقة » الذي غلب على امره ، على اصدار الحكم ببراءة المتهم .

* ويقتضينا الانصاف ان نذكر ان المحامي بوران كان له سلف في مثل هذه الامور هو المحامي ليون كلبري الذي ما ان قاطعه رئيس المحكمة حتى انهى مرافعته بأربع عبارات اشار باصبعيه الى موكله قائلا :

– هو بريء !

واشار الى المدعي :

– هو شرير !

واشار الى الرئيس :

– أنت قاض عادل .

ثم جلس مرددا :

– أنا ، انتهيت ...

* وقد عرفت محكمة الجنح كذلك « الرئيس الاقصى » ، ويدعى دوبوى رئيس الغرفة السادسة عشرة . فلقد كان يصدر اوتوماتيكيا أقصى عقوبة يفرضها القانون مهما تكن الجنحة . وكثيرا ما كانت حماسته تدفعه الى تخطي حدود العقوبة ، فيقول مثلا لسارق بائس : « خمس سنوات سجن » . فيهمس الكاتب في أذنه بكل احترام :

– ولكن العقوبة ، يا سيدي الرئيس ، في مثل هذه القضية سنتان فقط .

* اما سلف دوبوى هذا فهو المشترع الاثيني دراكون الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد . فقد فرض العقوبة القصوى بلا اي تمييز على كل الاخطاء موضحا عمله بقوله : ذلك بأن الاخطاء الصغيرة بدت لي انها تستحق الحكم بالموت ، ولانني لم اجد عقوبات اخرى للاخطاء الكبيرة . ولكن الاثينيين نفوه عندما لم يعودوا يتحملون وطأته .

* ونعود الى فرنسا في عصرنا هذا فنفرد مكانا للرئيس ريشار ، رئيس الغرفة العاشرة . وقد عرف عنه انه قبل اصدار حكمه كان يلتفت الى معاونه الايمن ويسأله :

« بم نحكم عليه ؟ » . فيجيبه المعاون مثلا : « ستة اشهر » ، فيلتفت اذاك الى المعاون الايسر ويسأله : « وانت ما حكمك ؟ » ، فيجيبه : « اربعة اشهر » . وعندها يصدر حكمه :

– ايها المتهم ان المحكمة تقضي بسجنك مدة عشرة اشهر .

* اما الرئيس كوب بوي فيلجأ الى نوع آخر من القسوة كأن يتوقف وهو يقرأ حيثيات الحكم حتى اطلق عليه لقب « الرئيس اثارة » :

– لهذه الاسباب تقضي المحكمة على المتهم ب ... ويروح اذ يتوقف عن هذا الحد يبحث في جيوبه عن علبة التبغ ، ثم ينادي المباشر قائلا له : « هنري ، لقد نسيت منديلي ، ولا ريب ، في جيب سترتي ، فائتني به يا صديقي .

في هذه الاثناء يكون المتهم قد تصبب عرقا وهو ينتظر الكلمات الاربع الاخيرة التي ستحدد مصيره ، والحكم الذي يستحقه .

* وهذه النادرة اخيرة عن سادية بعض رؤساء المحاكم :

– انت تدعى دوران لويس ، ومتهم بالتشرد ، فهل حكم عليك من قبل ؟

– لا ، سيدي الرئيس ...

– اذا ، سيحكم عليك !

سمير شيخاني

رفعـــت راسهـا بسرعة عن لهب وابور الجاز الذي هب في وجهها فجأة . احترقت خصلة مـن شعرها المحمي . زادت كآبتها لدرجة الرغبة في البكاء . عاصفة من الحزن وجدت في قلبها ملاذا طيبا . بخيوط الامل المهزوم تسحب الدمع عن مقلتيها . تحاول دائما اذابة موجات الضعف القاسية بصهر تفكيرها في العمل . ذبل لهيب الوابور فعادت تعطيه نفسا ليصبح عنيفا . وضعت عليه كسرولة الملوخية ووضعت الحمام على البوتاجاز في كسرولة كبيرة . الموجات الفروية مركونة في صدرها . تلطمها لطمات خفيفة في احاسيسها . ترد اللطمات بغسل الصحون والملاعق والشوك والسكاكين و .. هدير الوابور جعلها تنهي عملها في المطبخ بشيء مـن العجلة . لمعت واجهة النملية والبوتوجاز والمغسلة بالماء والتايد ومسحت البلاط . نشفت رجليها والشبشب من الماء بخرقة جافة . وقفت على عتبة غرفة الضيوف . عيناها طاحونة الـم تجرش كل ابتسامة . صورته معلقة على الحائط . يبتسم ابتسامة بلهاء .. المرة الثانية التي ضحك فيها . المرة الاولى قبل اربعة اشهر يوم زفافها .

دفعت نفسها ورتبت مزهرية الورد . مسحت الترابيزات ووضعت رجل احدى الكنبات على تهرؤ في السجاد . رشت الغرفة « بالفلت » .. واغلقت الباب .

لم تعط الصالة اهتماما كبيرا جدا لعدم حاجتها لذلك . فقط ، مسحت وجه طاولة الاكل الموجودة هناك .

اتجهت الى غرفته . كان غارقا في النوم . فمه منفرج عن اسنانه الترابية . ذقنه طويلة مقرفة . شعر راسه منكوش بشكل مزعج . يخرج زفيرا مسموعا . تشمئز عندما تجلس معه . حديثه ممل ومتعب .

ـ عيسى ..

ولكزته برفق في كتفه ..

ـ عيسى ..

ـ هه .. هه ..

ـ صباح الخير ..

عرك عينيه باصابعه ..

ـ صباح الخير .. كم الساعة ؟

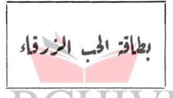
تناولت ساعة عن الكمودينو الملاصق للسرير . قرات صفحتها .

ـ العاشرة تماما ..

ـ ياه .. افتحي الراديو .. بسرعة .. على عمان ..

الترانزستور على نفس الكمودينو . ادارت مفتاحه . لحسات من السأم اقشعر لها كيانها .

قال المذيع في موجز الاخبار وعيسى منقلب الى اذن تسمع ـ ان اربعة جنود اسرائيليين قتلوا في اعتداء على القدس . صاح عيسى




بقلم فخري قعوار



بكل عمقه :

ـ الله الله .. اربعة ؟! .. تصوري يا نجاح اربعة اسرائيليين ماتوا يا سلام ..

اجابته ببرود وعدم رضا :

ـ قم اغسل وجهك احسن لك . قرب ميعاد مديرك خليل افندي وزوجته . وخرجت .

الغمام الاسود يعشش في شرايينها . الطريق المعتم الحزين تبدو نهايته قاتمة كرحلة الامل الكبير . تبحث عن رغوة الحليب والفراء . لحظة الامان .. لحظة تغيب فيها عبر عيني رجل لا قرار




لهما . رجل وقور امام الناس . يحلق ذقنه .. بلا شنب ونقوده كما النهر الخالد ! ..

اعتنت قليلا بالطبيخ ثم غسلت وجهها . قدماها ينسحبان خلفها الى غرفة النوم . عيسى يقص بخطواته صفحة ضجيج الوابور الموزون . جلست امام مرآة التواليت الصغيرة المهزاة . جففت وجهها . رشته بالبودرة وطلته بطبقة خفيفة من الكريم . مرت بقلم الروج على شفتيها بخفة .. حكت شفتيها ببعضهما . لامست سبابتها قلم الروج ، ووضعته برفق على خديها . دعكتهما . فركت وجهها جيدا حتى بدا بلون طبيعي . دخل عيسى والصابون على وجهه . لم تنظر اليه عندما تأملها في المرآة . اخذ شيئا وخرج. كانت تسرح شعرها . لاترغب في النظر اليه . لا تحب ان تقرا ملامحه اكثر مما فعلت . عيناه الصغيرتان اللتان لا تحملان اي تعبير . انفه الطويل المثقوب مرتين بافراط . شاربه البني المضطرب . هو .. هو .. لا داعي لان تقرا وجهه اكثر . شفتاه .. آه .. لا تعرفان الا الحديث في فلسطين وطاولة الزهر والاصدقاء المتحمسين وليس له من الدنيا غير راتب شهري قليل وبطاقة مؤن زرقاء . رجاها مرة ان تكون محور ما يربطهما من علاقات . يا الله ! اين رغوة الحليب والفراء ؟ .. اين لحظة الامان ؟ .

امطر جرس الباب بغزارة . تحركت كل خلايا جسمها . القت ظفيرتها الفحمية على ظهرها . القت على نفسها نظرة اخيرة في المرآة . رضيت بجمالها . نهضت لتفتح الباب . كان عيسى يسبقها . خليل افندي فقط من غير زوجته . مبتسم بوقار عن اسنان قطنية . وجه حليق املس بلا شنب . طويل . عريض الصدر . يا لجمال عينيه . عيناه غابتا ظل وليلك ..

ـ نجاح .. سلمي على خليل افندي ..

تفاجأت بيد الرجل ممدودة امامها في يده خاتم ذو فص وهاج . مدت يدها بارتجاف فضاعت في يده الكبيرة . شعرت بقشعريرة تسري في جسدها . يده دافئة عظيمة .

قال عيسى مشيرا الى غرفة الضيوف : ـ تفضل . .

سحب يده بلا مبالاة . مدها الى جيب صدريته . اخرج ساعة ذهبية مدورة . اعادها مكانها .

ـ اعتقد انني لم اتأخر ..

قال عيسى : ـ ابدا .

جلس الرجل على كنبة في صدر الغرفة . جعل عيسى بينه وبين خليل كنبة وجلس . نجاح واقفة على العتبة ما زالت تنظر الى الرجل . مر ببالها خاطر جعلها تشعر بالحياء . احمر وجهها بعنف . اذناها حبتا بندورة شتوية . لو كان خليل زوجها .. لو .. هو رغوة الحليب والفراء . في يده لحظة الامان . تصورت ان قلبه عطوف حنون ، وصدره اشد دفئا وامانا من يده . يا بخت زوجته .. آه ..

ـ اين المدام يا خليل افندي .. ؟

قال بصوت وقور معتدل :

ـ حصل ظرف منعها من المجيء

مطت شفتيها بابتسامة لا رائحة لها . خرجت . اطفأت الوابور والبوتاجاز .. صبت الطعام في الاطباق وفكرها في الغرفة الاخرى . يبدو ان الموجات الفروبية مالت الى الهدوء . لمسات خفيفة من الضوء تغطي قمم الامواج الواهتة .

صفت اطباق الطعا معلى طاولة الاكل . وضعت الشوك والملاعق وفوط السفرة بترتيب اعجبها . تأثرت قليلا لانها نسيت ان تخرج مزهريةالورد قبل مجيء خليل لتضعها على الطاولة . القت نظرة استعراضية على اناقة الطاولة . وجدت نفسها قد نسيت ابريق الماء والكبايات . احضرتها بسرعة !

وقفت امام غابتي الظل والليلك .

ـ تفضل .. الاكل جاهز

تذبذب شنب عيسى باضطراب عندما غمغم : تفضل ..

افرج شفتيه عن اسنانه القطنية .

ـ متشكر ..

خلع جاكيتته . تلقفتها وعلقتها على مشجب قريب . جلسوا .

قال بوقار ـ سآكل لقمتين وامشي ..

لم يعلق احد . قالت نجاحمجاملة وهي تدفع امامه صحن ارز ..

ـ تمنيت ان تكون المدام معك ..

غرف من صحن الملوخية بالملعقة وهو يقول : زوجتي مجنونة ..

اضاف : و .. و .. سخيفة ايضا ..

وضع لقمة كبيرة في فمه . اكمل ، وشفتاه تخرجان صوتا مزعجا من عملية الاكل :

ـ غضبت لانني رفضت ان نأخذ الصغير زهير معنا .. مجنونة .. اثارت اعصابي .. فضربتها بمفاتيح كانت في يدي ..

انجرحت صفحة الحليب والفراء . اخرجت نجاح صوتا : ياه ؟!

ـ ومنذ ساعة تقريبا خرجت ذاهبة الى البلد عند اهلها .. ومعها زهير .. قال عيسى .. لم لم تستدرك الموقف ؟.

قال : كبريائي يا عيسى ..

في تجويف راسها فراغ . في صدرها فجوة ضاع محتواها . شيء ثمين سقط منها . بحثت في وجهه عن شيئها . لم تجد اللحظة .. لحظة الامان الرطبة .. لم تجد الظل والليلك .. حتى فراغها ظل مشروخا . الرجل يأكل بطريقة غير لبقة . صلعته الصغيرة الملساء تلمع من حركات فمه . يبدو انه شبع . دفع مقعده قليلا الى الخلف .. الحمد لله ..

عيسى يستحلفه ان يستمر في الاكل . الرجل يتشكر ويشعل سيجاره .

عاد الى غرفة الضيوف . وراحت تعيد الصحون وبقايا الاكل وادوات السفرة الى المطبخ . كسرت صحنا . لم يأت عيسى ليطمئن . يبدو انه تجاهل الموضوع امام الضيف .

سمعت الرجل يستأذن للخروج . عيسى يدعوه الى الاستمرار في الجلوس . يرفض لانه سيذهب ليعيد زوجته من البلد . احضرت له جاكتته . ارتداها . صافح عيسى مودعا . صافحها . خيل اليها ان يده اصغر مما كانت ، قبل قليل . هذه يد اخرى وباردة ايضا . سحبت يدها . خرج .

في داخلها فراغ وبقايا كآخر المائدة . بلل خفيف من موجات الغروب . لمسة ميتة لجثة الظل والليلك والحليب والفراء . عطش للحظة غنية حنونة . عيسى مستلق على السرير . خلعت ملابس المطبخ . جلست امام مرآة التواليت . فكت ظفيرتها الفحمية المموجة . يحبه متدفقا كشلال عتمه . كان ينظر اليها في المرآة . نظرت اليه . يحبها ووضعت المشط على الترابيزة الصغيرة . نهضت . وقعت عيناها على البطاقة الزرقاء : « لتكن محور ما يربطنا من علاقات » . وضعت وجهها على صدره . سال الليل على بيجامته الخضراء . رفعت وجهها . تأملته . تأملته طويلا ..

قال : ما لك يا نجاح ..

لا شيء .. لا شيء يا عيسى .

احست عيناها ادمعتا . لا شيء . كل ما هنالك انني .. انني ..

ـ احبك يا عيسى .. احبك ..

امطرت عيناها على الحقل الفني ، بللت وجهه . شيء مربع ازرق ملقى في قاع فراغها . الشيء يتوهج . وضعت ذقنها على جبينه . لم يرضها ان تنظر الى الوسادة . ازاحت راسها . تحركت الفيتمان المطرتان . الحقل يوشك ان يمطر ايضا ! ... احست برضاب فمه على شفتيها .

**الزرقاء ـ الاردن** **فخري قعوار**

# الشيخ محمد هاشم – الاب مرمرجي محمد عبد السلام البرغوثي

بقلم البدوي الملثم

* * *

## ١ – الشيخ محمد منيب هاشم

ولد في نابلس عام ١٨٥٥ من ابوين كريمين يمتان بنسبهما لسيدنا جعفر بن ابي طالب احد شهداء معركة « مؤتة » الشهيرة ، وتعلم القراءة والكتابة ودرس القرآن الكريم في المدرسة الاهلية الكبرى بنابلس ، ولما تمكن من العلوم الابتدائية شرع في طلب العلم ثم بدا له الذهاب الى مصر لزيارة اخوة له يطلبون العلم في الازهر الشريف ، ولم يكد يرى طلاب العلم في أروقة الجامعة الازهرية حلقات حتى تحركت فيه عاطفة البقاء في القاهرة طلبا للعلم فبقي فيها وطفق يتلقى العلوم عن أعلامها في ذلك العصر كالشيخ محمد الانبابي والشيخ ابراهيم السقا والشيخ محمد الاشموني والشيخ ابي العز وغيرهم من شوامخ الازهر الشريف ، وهناك قرأ على اساتذته الفقه واصوله وعلم الكلام والتفسير والحديث والصرف والنحو والمنطق والبلاغة وعلم الوضع وآداب البحث ، فدلل في دراستها على ذكاء مفرط واقبال على هضم المواد التي درسها .

وبعد خمس سنوات سلخها طالبا في الازهر الشريف ، زوده اساتذته المحققون بشادة تدل على مدى ما وصل اليه هذا الفقيه الواعي من التفوق على أقرانه مع صغر سنه ، ومما جاء في شهادة مجيزيه :

« كان ممن ورد علينا من بيوت السيادة والمجد ، ومواضع الرفعة والحمد ، معتصما بتقوى الله فيما رام من الفضائل الازهرية ، مؤيدا بالتوفيق وسامي العزمات القوية ، وعكف على هذا المطلب الاسمى حق العكوف ، ووقف في المقام الاسمى على قدم الصدق فيه أوثق وقوف ، فاسعفته العنايات ، ووالته الامدادات ، فنظم ونثر ، وحرر وقرر ، وادرك في ازهرنا غاية في الاحاطة وقوة الملكة والحفظ مع صغر سنه وقرب عهده بالبلوغ ، حمى فيها حومة الميدان ، وانقطعت عنه مبارزة الاقران ، واذعن لباهر فضله الواقع وحقيقة العيان » .

ترك هذا الشيخ الواعي اثرا طيبا بين علماء مصر ، وربطته صداقة بالشيخ محمد بخيت ، ودرس كلاهما على الشيخ محمد عبده .

وعاد الشيخ محمد منيب هاشم الى نابلس مسقط رأسه يحمل شهادة العالمية من الازهر الشريف لكن نفسه الطموح أبت عليه الوقوف عند هذا الحد بل حملته على زيارة الاستانة وفيها تعرف على علماء المشيخة الاسلامية فكان موضوع تقديرهم واعجابهم بعمله الجم وعقله الراجح ، فعين عضوا في مجلس تدقيق المؤلفات وبعد عامين من هذا التعيين اختير قاضيا شرعيا لطرابلس الشام فكان في عمله هذا مثال العدل والنزاهة ونصفة المظلوم ، مما جعل الاهلين يلهجون بذكره ويثنون عليه . وبعد مدة نقل الى لواء – قره سي – بالاناضول فأدى وظيفته الشرعية خير اداء ، ثم نقل الى مدينة بنغازي بليبيا وكيلا للقضاء الشرعي فمكث سنة هناك ثم عين قاضيا فيها ، ثم عين مفتيا بنابلس فمكث فيها خمس سنوات ثم انتدبته المشيخة الاسلامية عضوا في محكمة التمييز في الاستانة فلبى الطلب وزاول عمله الجديد بما عرف فيه من عفة ونزاهة . ولما ايقن من اتساع شقة الخلف بين اعضاء هذه المحكمة آثر الاستقالة والرجوع الى نابلس ليقضي فيها ما بقي من ايام حياته وليتلقى الفتاوى من سائر انحاء العالم الاسلامي ويرد عليها نظما .

وسرعان ما رشحه مواطنوه لمنصب الافتاء وظل يشغله الى ان لحق بربه في ٢٥ شعبان ١٣٤٣ هـ ( ١٩٢٤ ) .

**من آثاره القلمية :** ترك الفقيد الشيخ محمد منيب هاشم طائفة من المؤلفات الفقهية واللغوية التي ما برحت مخطوطة واشهر ما عرف منها : أ – حميد الاثار في نظم تنوير الابصار . ب – مجموعة سبع رسائل هي :

١ – القول السديد ، في أحكام التقليد . ٢ – رسالة الكلام على وحدة الوجود . ٣ – غاية التبيان في مبادىء علم البيان . ٤ – رسالة القسطاس المستقيم لما في تبيان التعليم . ٥ – رسالة في الكسب . ٦ – ارجوزة في علم الكلام . ٧ – نظم متن السنوسية ( ارجوزة في علم الوضع ) . وعلق على كتاب ( فتوى خانه الجديدة ) تعليقات مفيدة متيمة .

## ٢ – الاب اوغسطين مرمرجي الدومنكي

ولد ببغداد في الحادي والثلاثين من تموز ١٨٨١ وتلقى دروسه الاولية في «المدرسة السورية – الكلدانية» بالموصل وزامل فيها نيافة الكردينال تبوني . وخلال سني دراسته كان تواقا للانخراط في سلك الرهبانية الدومنكية وكان لهذه الرهبنة فضل في تسديد خطاه الاكليركية فعين كاهنا في بغداد حيث ادار الكلية السورية ثم في البصرة وتولى تدريس العربية والفرنسية وآدابهما ثم الخطابة والمنطق والفلسفة .

وخلال الحرب العالمية الاولى اصيب بالتيفوس لسهره على المرضى المصابين بهذا الداء وعهد اليه بادارة الكلية الكرملية وفي عام ١٩٢٠ حقق المسؤولون الاكليركيون رغبته فانخرط في رهبانية القديس دومنيك وفي ٨ تموز ١٩٢٢

انشح بمسوح هذه الرهبانية واصبح راهبا بسيطا في سان مكسيم بالبروفانس حيث توجد عهد ذاك دار المبتدئين بمدينة تولوز ، وفي ٧ شباط ١٩٢٤ عاد الى بيت المقدس واحتفل برهبانيته احتفالا رائعا صباح ٩ تموز ١٩٢٦ .

وابان تمرسه بالرهبانية الدومينيكية شرع في تعليم اللغة العربية واظهر فيها براعة وعلما وتعمق في دراستها طيلة حياته واشتهر بالنظرية الثنائية والالسنية السامية وقد الف فيها كتبا كانت موضع اعجاب وتقدير علماء العربية اغنى اللغات السامية طرا ، ولعلها اوفر ثروة من النظرية قام بابحاث وتحقيقات لغوية لم ينشر منها الا قسم ضئيل واجرى الاب مرمرجي احصاء لمعجميات سامية فكان على وجه التقريب التالي : « يبلغ مجموع اصول العربية ( ٧٢٢٠ ) ومزيداتها (١٢٠٣٢ ) في حين ان اصول اللغات السريانية والعبرية والحبشية والاكدية مجتمعة تبلغ ( ٤٩٥١ ) ومزيداتها ( ٨٦١٠ ) ولذا يسوغ القول ان العربية اغنى اللغات السامية طرا ، ولعلها اوفر ثروة من لغات العالم قاطبة » ، وباقتراح من الاب لاكرانج نشر مؤلف تاتيان وعملا بنصيحة الاب ابيل ترجم الى الفرنسية النصوص الجغرافية العربية المتعلقة بفلسطين .

لم يكن الاب مرمرجي لغويا فحسب بل كان خطيبا مفوها وجمع بعض خطبه الدينية والفلسفية ، ولم يحل عمله الروحي المثمر دون متابعة النقل فاقدم على ترجمة انجيل السيد المسيح لمؤلفه الاب لاكرانج والاناجيل الاربعة الى اللغة العربية .

واعترافا بسعة علمه وتضلعه من العربية انتخبه المجمع العلمي العربي بدمشق عضوا فيه عام ١٩٤٧ كما انتخبه المجمع اللغوي المصري بالقاهرة عضوا فيه عام ١٩٥٥ ، وخلال السنوات الطوال التي عاشها في بيت المقدس كان يقصده المستشرقون ويتحدثون اليه باصول وقواعد اللغة العربية وفقهها .

ونشر الاب مرمرجي مقالات لغوية في امهات المجلات العربية كالمشرق والمقتطف والاديب ومجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، واحسن من الالسن القديمة كتابة وتكلما : العربية ، السريانية ، العبرية ، التركية ، اليونانية ، الاكدية والحبشية ، واحسن من اللغات الاوربية : الفرنسية ، الانكليزية ، الايطالية ، الاسبانية .

وفي اخريات ايامه ساءت صحته فلزم دير الدومنيكان بالقدس ثم اضطر الى دخول المستشفى الفرنسي وفي يوم ٢٨ نيسان ١٩٦٣ انطفأت شعلة حياته وفي اليوم التالي شيع جثمانه جمهور غفير من قادري ادبه وفضله ودفن في كنيسة القديس اتيان بالقدس .

**من آثاره القلمية :** (١) انجيل يسوع المسيح : وفيه قصة حياته وتعاليمه ومعجزاته ، وقد ترجمه الاب مرمرجي عن الفرنسية عام ١٩٢٨ . (٢) الدياطسرون او الانجيل الرباعي : ترجمه الاب مرمرجي عن الفرنسية عام ١٩٣٥ وعارضه بالترجمات السريانية القديمة . (٣) المعجمية العربية على ضوء الثنائية السامية : نشرها عام ١٩٣٧ . (٤) هل العربية منطقية ؟ : مباحث في الثنائية نشرها عام ١٩٤٧ (٥) محاضرات مختارات : نشرها عام ١٩٤٧ (٦) بلدانية فلسطين العربية : نشرها عام ١٩٤٧ (٧) بلدانية فلسطين العربية : ( مترجمة بقلمه الى الافرنسية ) ، (٨) قواعد اللغة الاكدية ( الاشورية ــ البابلية ) (٩) ماهية الثنائية الالسنية والالسنية السامية . (١٠) المعجم الثنائي ــ الالسني ــ السامي . (١١) الازائية الانجيلية : نظمها باليونانية والافرنسية الاب لا كرانج والابلافيرن الدومنيكيان ونقلها الاب مرمرجي عن الفرنسية الى العربية عام ١٩٤٨ . (١٢) معجميات عربية سامية نشرها عام ١٩٥٠ .

## ٣ ــ محمد عبد السلام البرغوثي

ولد في « دير غسانة » بقضاء رام الله وتلقى دروسه الاولية في مدرسة قريته وانهى دراسته الثانوية في الكلية العربية بالقدس عام ١٩٢٨ ونظرا لتفوقه اوفدته مديرية المعارف في فلسطين ببعثة الى الجامعة الاميركية في بيروت ليدرس الرياضيات والطبيعيات وفي عام ١٩٣١ نال شهادة بكالوريوس علوم وعاد الى فلسطين وكان اول عمل زاوله التدريس في ثانوية طولكرم الاميرية ومنها نقل مدرسا فمديرا لثانوية البنين في حيفا وبعد ان سلخ فيها سنتين دراسيتين نقل في عام ١٩٣٥ الى القدس ليدرس الرياضيات والطبيعيات في الكلية العربية والكلية الرشيدية وفي عام ١٩٤٤ استقال من التدريس ليعمل سكرتيرا عاما للبنك العربي بالقدس .

وفي عمله الجديد هذا طفق يبث المحاضرات في العلوم والتاريخ والاجتماع من دار الاذاعة الفلسطينية وينشر الافتتاحيات القومية والتعليقات التوجيهية في جريدة « الدفاع » الفلسطينية قبل النكبة وبعدها وعالج ابحاثا في الاقتصاد والعلوم والاداب نشرها في مجلة « الكلية العربية » و « العروى الوثقى » و « المنتدى » .

وتميز الفقيد البرغوثي بذكاء نادر وثقافة ممرعة ، وجمع بين العلم والادب فكان الفارس المجلي . وفي الثامن والعشرين من تشرين الاول ١٩٥٢ توفي في عمان ودفن في مقبرة باب الساهرة ، ببيت المقدس .

من **آثاره القلمية** : ترك المترجم له ثروة من المقالات القيمة والابحاث الرائعة ، ولو قدر لنتاجه ان يجمع لجاء في موسوعة كبرى من العلم والادب والتاريخ والاجتماع .

وفي عام ١٩٤٢ درج على اذاعة احاديث اسبوعية ماتعة من دار الاذاعة الفلسطينية ــ بالقدس بعنوان ديار العرب والاسلام » بلغت ستة عشر حديثا . وتقديرا من المؤرخ البحاثة الاستاذ عجاج نويهض ، مدير القسم العربي في دار الاذاعة الفلسطينية نشر تلك الفصول الرائعة في كتاب « حديث الاذاعة » وهو يحتوي على المختار من الاحاديث

المذاعة لعدد من العلماء والادباء في الاقطار العربية .

نموذج من نثره : « في مكة انزل الاسلام هدى للناس ، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم ، اقرب الناس اليه ليعبدوا الله ، ولا يشركوا به احدا ، فلما انكر هؤلاء على النبي الكريم دعوته الجديدة للحق ، واضطروه ان يرحل عن مكه مسقط راسه ومنزل عشيرته ، الى المدينة دار هجرته ومركز شيعته ، تبدل مظهر الدعوة الاسلامية . فبعد ان كانت دعوة روحية خلقية ، ادغمت بنظام اجتماعي وسياسي ، هو نواة الحكومة الاسلامية الاولى . وهمنا في هذا الحديث تتبع نمو هذا النظام السياسي الذي ولد يوم هاجر النبي وانصاره من مكة ، واستقبله اهل المدينة ، وآزروه وقبلوا دعوته وزعامته الدينية والدنيوية . وقد بقيت المدينة المنورة مركز النظام الجديد ومجتمع قوته ، زهاء اربعين سنة ، اي منذ انتقل اليها الرسول ، حتى استتب الامر لزعيم الشام معاوية بن ابي سفيان ، فنقل مركز الحركة الاسلامية الى دمشق .

خلال هذه العقود الاربعة من السنين ، استطاعت الجماعة الاسلامية الاولى ، ان تنجو من اعتداء قريش في العقد الاول ، وان تنتشر الاسلام بين قبائل حجازية قوية . وفي العقد الثاني الذي بدىء بفتح مكة، والذي ازداد فيه انتشار الاسلام ، فاخذ الناس يدخلون في دين الله افواجا ، تم توحيد كلمة الجزيرة العربية ، وتوطيد الامن فيها ، وسوق رجالها للفتوح . وانتهى عهد المدينة بالنزاع الداخلي ، الذي ابتدأ بالثورة على عثمان ، وانتهى باستتباب الامر لمعاوية » .

وقد جاء وقت كان فيه مركز القوة الاسلامية ، موزعا بين المدينة ودمشق والكوفة ، ولكن المدينة بقيت عاملا سياسيا قويا في حضارة الاسلام ، حتى استتب الامر لبني امية ، وظهرت للوجود امبراطوريتهم العظيمة ، وعاصمتها دمشق .

كان اول عمل في سبيل الوحدة الاسلامية قام بها الرسول ، ان آخى بين انصاره ، وكانوا قبل في نزاع مستمر ، فالاوس والخزرج انصار النبي من قبائل اليمن ، وكانوا قد قدموا المدينة بعد الانهيار الاقتصادي الذي عقب ضعف ملوك حمير . ولكن القبيلتين تنازعتا اشد النزاع بعد هجرتهما الى الحجاز . وكان في المدينة عدا الاوس والخزرج جمهور من اليهود ، ولهم مركز مهم في خيبر وهي مجاورة لاراض زراعية ، وكان اليهود في المدينة زراعا وتجارا . وكان انقسام الاوس والخزرج مما قوى مركزهم . فلما آخى الاسلام بين القبيلتين المذكورتين ، ضعف مركز اليهود ، فهادنوا المسلمين حينا ، وناصبوهم العداء حينا آخر ، حتى غلبوا على امرهم ، واخرجوا من المدينة والحجاز ، في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب .

بعد ان نجا النبي من ظلم قريش ، والف بين الانصار ، سعى في اضعاف مركز اعدائه في مكة ، وكان اقرب سبيل لذلك ، واشد تنغيصا لحياة قريش التجارية ، ان يمنع تجارتها بين الجنوب والشمال ، تلك التجارة التي كانت تمر بجوار المدينة . فاذا وقفت تجارة مكة ، قضي عليها لا محالة .

الى هذه الغاية انصرفت اكثر غزوات النبي واعماله الحربية ، وكان اول قتال بينه وبين مشركي مكة في بدر الواقعة الى الجنوب الغربي من المدينة ، وعلى بعد عشرين ميلا منها ، وهي على طريق القوافل بين مكة والشام ، وكانت (بدر) النصر الاسلامي الاول ، وقد انتصر فيها المسلمون على اكثر من ثلاثة اضعافهم ، وكل من اشترك فيها عرف فيما بعد ، بانه من اهل بدر الذين تميزوا عن جميع المسلمين بغنائم الحرب . وقد حاولت قريش ان تحمي تجارتها وشريان حياتها ، فحشدت جموعا لقهر المدينة ، ونالت بعض النصر في (احد) في السنة التالية لغزوة (بدر) . ثم جمعت اكبر جيش كان في طاقتها جمعه من رجالها ، ومن البدو المجاورين لها ، ومن الاحباش العاملين في تجارتها ، وساقت هذا الجيش الجرار ، بالنسبة الى الفئة الاسلامية القليلة العدد ، الى ابواب المدينة لتحاصرها وتحصر المسلمين فيها . وعرفت هذه الجموع بالاحزاب ، وقد انضم اليها يهود المدينة ، مع انهم كانوا متهادنين مع المسلمين . وكان مما اخرج المسلمين من هذا المازق الحرج ، ما اشار به سلمان الفارسي على المسلمين ، بان يحفروا خندقا حول المدينة ، فضاق البدو المحاصرون ذرعا بهذا النوع الجديد من القتال الذي لم يألفوه ، ولم يطيلوا الحصار ، بل انصرفوا بعد شهر ، ونجا الاسلام من الفناء وهو في مهده » .

عمان — البدوي الملثم



حارث طه الراوي

# ايليا ابو ماضي: لمحة عن حياته ونفسيته

بقلم حارث طه الراوي

* * *

في قرية « المحيدثة » اللبنانيه ولد ايليا ابو ماضي خلال سنة من السنين التالية ١٨٨٩ او ١٨٩٠ او ١٨٩١ او ١٨٩٤ فالروايات متضاربة حول مولده ومن الصعب ترجيح رواية على رواية بالرغم من ان جميع الصحف والاذاعات التي نعته ذكرت انه توفي عن ٦٤ عاما اي انه من مواليد ١٨٩٤ (١) واستهل دراسته في مدرسة القرية . ومن سنة ١٩٠٢ (٢) اخذ يبيع السكاير نهارا في متجر عمه ويدرس ليلا الصرف والنحو تارة على نفسه وطورا في بعض الكتاتيب المتواضعة. واصدر في ارض الكنانة سنة ١٩١١ ديوانه الاول المسمى « ديوان ايليا ابو ماضي » الذي اهداه الى الشعب المصري بقوله : « ايتها الامة الودودة . هذا ديواني الذي نظمته تحت سمائك وبين مغانيك ارفعه اليك لا طلبا للمثوبة ولا ابتغاء للشكر ولكن اظهارا لما تكنه جوانحي من العطف عليك والتعلق بك » .

وهاجر ايليا ابو ماضي الى ولاية « سنسناتي » في الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩١٢ حيث اقام اربع سنوات يمارس التجارة مع شقيقه مراد . وانتقل ابو ماضي الى « نيويورك » سنة ١٩١٦ حيث اتيح له ان يطبع « ديوان ايليا ابو ماضي – الجزء الثاني » مصدرا بمقدمة بقلم صديقه جبران خليل جبران (٣) . ومقدمة جبران لهذا الديوان انما هي مقدمة تقريظ وتعريف لا مقدمة عرض وتحليل ونقد صحيح فقد جاءت مشحونة بالاسلوب الشعري وقد تحدث فيها جبران عن الشعر والشاعر بصورة عامة وختمها بثلاثة سطور تحدث فيها عن شاعرية ابي ماضي بقوله : « وايليا ابو ماضي شاعر وفي ديوانه هذا سلالم بين المنظور وغير المنظور وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التي ان لم ترشفها تظل ظمآنا حتى تمل الالهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان » .

ولكن هذه المقدمة تدل على المكانة المرموقة التي تبوأها ايليا في قلب جبران الذي كان يتزعم الحركة التجديدية في المهاجر آنذاك ...

ولم يكن ابو ماضي عندما اصدر هذا الديوان قد تحرر من النعرات الطائفية المريضة البغيضة فقد كان ينتصر للغربيين في المعارك التي دارت رحاها بينهم وبين الاتراك بدافع طائفي بحت . وقد علق « نظير زيتون » على هذه النزعة الطائفية البغيضة التي كان يجاهر بها ابو ماضي تعليقا وافيا في بحثه الطويل « لمحات عن ايليا ابي ماضي » المنشور في العدد الخاص عن ابي ماضي من مجلة «الرسالة» اللبنانية الصادر في ١٥ شباط ١٩٥٨ . وحسبي ان اقتطف من تعليقه السطور التالية :

« اما نحن فما لنا الا ان نحزن ونأسف على جواد كريم كبا فكرا وتبهنس نكرا وانطلق شعرا . اقول انه كان يعبر وقتئذ عن احاسيس بيئته ومجتمعه اي المغتربين السوريين واللبنانيين في الولايات المتحدة ؟ وانه كان يترجم عن آرائهم وشعورهم ؟ والحقيقة ان جاليتنا في الولايات المتحدة جمعت بشكل غريب بين المتناقضات وقست على نفسها اشد القسوة في تلك التعصبات الطائفية التي قادتها بعض الصحف وسعرت نيرانها بين الموارنة والارثوذكسيين وبين المسيحية والاسلام طورا .. »

ولما تشكلت جمعية « الرابطة القلمية » في نيويورك سنة ١٩٢٠ برئاسة جبران خليل جبران انتخب ايليا ابو ماضي عضوا فيها (٤) . وظل ابو ماضي يحرر في جريدة نسيبه نجيب دياب « مرآة الغرب » حتى سنة ١٩٢٨ حيث تركها واصدر في نيسان سنة ١٩٢٩ مجلة « السمير » التي كان يصدرها مرتين في كل شهر . وفي سنة ١٩٣٦ حولها الى جريدة يومية . وقد كان يكتب اكثر افتتاحياتها ويعالج فيها المشكلات الاجتماعية والسياسية (٥) .

وفي اواخر سنة ١٩٤٨ مثل ابو ماضي مع حبيب مسعود صحافة المهجر في مؤتمر اليونسكو الذي انعقد في لبنان فقضى في وطنه شهرا كان فيه موضع حفاوة الاوساط الادبية والرسمية . وقد منحته الحكومة اللبنانية انذاك وسامي الاستحقاق والارز واقيمت له بتاريخ ٦ شباط ١٩٤٩ حفلة كبرى في دمشق برعاية شكري القوتلي

رئيس جمهورية سورية في ذلك العهد الذي علق علي صدر الشاعر وسام الاستحقاق الممتاز وانشد ابو ماضي في هذا الحفل بائيته الشهيرة « تحية دمشق » وظل ابو ماضي يواصل اصدار جريدته (السمير) الى ان توفاه الله في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٥٧ بعد ان ابتلي بمرض أنقلب .

ويجدر بي الا اتخطى التجني الذي لاقاه ابو ماضي حيا والتجني الذي لاقاه ميتا . ومن الانصاف ان اترك له الرد على بعض التجني الذي لاقاه حال حياته وان ارد عنه التجني الذي لاقاه بعد ان ذهب الى رحمة ربه ... فقد طبع ديوانه (الجداول) اكثر من طبعة في بعض الاقطار العربية من غير استئذانه ومن غير أن يرسل اليه الناشرون المكافأة المالية الواجبة ... ولم يقف الامر عند هذا الحد بل تعداه الى اسلوب اخر من التجني فقد غنى المغني محمد عبد الوهاب بعض مقاطع من ملحمة ابي ماضي « الطلاسم » من غير ان يرسل له المكافأة المالية الواجبة في مثل هذه الامور ... فكان من الطبيعي ان ينفعل ابو ماضي ويثور وينشر مقالا في جريدته (السمير) تحت عنوان (لصوص الادب) (٦) ومما جاء فيه قوله :

« قد يكون العقار الموروث او المكسوب نفيسا وثمينا .
وقد يكون المال من ذهب وفضة هو المرغوب في حيازته .
ولكن الادب الذي هو نتاج الروح أنفس وأثمن من العقار والمال .

انما الناس مع اعترافهم بهذه الحقيقة لا يعاقبون سارق الادب كما يعاقبون سارق المال والعقار ولعلهم لا يفعلون ذلك لان السواد الاعظم يملك مالا او عقارا فهو يعاقب سارقها لئلا تمتد يده الى ماله وعقاره . ويتهاون في معاقبة لص الادب لان الادب ثروة الناس الذين ليس لاكثرهم مال وعقار . ولا خوف من هؤلاء اللصوص على بيت ولا على ارض ولا على ذهب مكنون . وقد ابتلى الله صاحب هذه الجريدة بلصوص ادب وقاح في العراق ولبنان فاغاروا على ديوانه الجداول وطبعوه بدون استئذانه وعلى غير علم منه .... »

وجاءنا روكس بن زائد العزيزي عام ١٩٥٦ ببدعة جديدة في كتيبه « فريسة ابي ماضي » ... وهي ان ابا ماضي لم يتورع من سرقة قصيدته الشهيرة « الطين » من قصيدة او كصيدة شاعر بدوي اردني اسمه « علي الرميثي الخريصي الفدعاني العنزي » ... ولا اريد ان اتطرق الى الدوافع التي دفعته الى هذا الاكتشاف الخطير ومن شاء ان يرجع الى الدوافع التي دفعته الى ذلك والاساليب التي اتبعها في هذا المجال فليرجع الى بحث « حكاية الطين وعلي الرميثي» في كتاب « ايليا ابو ماضي (٧) لعيسى الناعوري فقد برهن الناعوري بشكل قاطع لا يقبل الاخذ والرد على ان ابا ماضي كان « ضحية بريئة لاهواء شخصية طارئة » واوضح كيف ان ابا ماضي كان حتى عام ١٩٥١ « من اعظم شعراء العربية في نظر صاحب المقال وكانت قصيدة الطين نفسها من القصائد التي امتلأت نفسه اعجابا بها وسمو روحها الانسانية والتي كان يقدمها لطلابه في دروس المحفوظات منسوبة الى ابي ماضي ـ لا الى سواه ـ » ...

فلا حاجة الى تلخيص هذه البواعث والاهواء ... او التعليق عليها ... ومن شاء أن يرجع اليها مفصلة متسلسلة تسلسلا منطقيا فليرجع اليها في كتاب الناعوري ... وسيجد في ص ١٤١ من هذا الكتاب شهادة لميخائيل نعيمه ـ الذي لم يعرف عنه انه انصف ابا ماضي يوما ما ـ تثبت ان قصيدة «الطين» هي لابي ماضي لا الى سواه ... وسيجد القارىء ايضا في بحث الناعوري عن « حكاية الطين وعلي الرميثي » عرضا وافيا للتجني الذي لاقاه ابو ماضي من احمد زكي ابو شادي وعبد المسيح حداد ...

وفي عام ١٩٦٠ اصدر ميخائيل نعيمه المرحلة الثانية من كتابه « سبعون » الذي تحدث في فصل من فصوله عن رفاقه في « الرابطة القلمية » فقال عن ايليا ابي ماضي (٨):

« من المحيدثة ـ لبنان . قصير زهيد الجثة والشعر .

(١) راجع كتاب « ايليا ابو ماضي » لعيسى الناعوري ـ منشورات عويدات ص١٣ ـ ١٤ . (٢) ذكر محمد قره علي في جريدة الحياة نقلا عن ابي ماضي بالذات انه هاجر الى الاسكندرية سنة ١٩٠١ وذكر جورج صيدح في ص ٣٥٣ ط٢ من كتابه « أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الاميركية » انه هاجر سنة ١٩٠٢ . (٣) ذكر زهير ميرزا في حاشية ص ٩٤ من كتاب «ايليا ابوماضي شاعر المهجر الاكبر ـ شعر ودراسة» تعليقا على هذه المقدمة انها كتبت لديوان « تذكار الماضي » وهذا خطأ محض . . (٤) قال ميخائيل نعيمه في مقاله « أبو ماضي في حقيقته » المنشور في عدد (الرسالة) اللبنانية الخاص عن ابي ماضي بصدد كلامه عن الجزء الثاني من ديوان ايليا ابي ماضي واثر الرابطة القلمية في شعره الذي نظمه بعد صدور هذا الديوان : «فلا عجب ان يكون أول ما أطل به على العالم العربي ( ديوانا ) اذا شهد لصاحبه بشيء فبفطرة شعرية لاشك فيها وبطول النفس ونشاط القريحة بحيث يستطيع قارؤوه ان يتنبأ بأن صاحبه مؤهل لان يصبح شاعرا يوما ما . اما الابداع واما الذوق الفني واما المدى الشعري فالديوان يكاد يكون بريئا منها جميعا . ومن اين كان لايليا ان ينتج في ذلك الحين غير ما انتج والفضل مما انتج وهو لا يملك من اللغات غير العربية ولا يطل على اي ادب اجنبي من قريب او من بعيد ؟ لذلك اسعف ايليا كثيرا احتكاكه باخوانه في (الرابطة القلمية) . وقد تمثلت في بعضهم شتى الثقافات . فما علم ان اخذت تظهر في شعره اتجاهات جديدة والوان غير التي استأثرت بديوانه الاول » . وقد علق على هذا القول « مراد ابو ماضي » شقيق ايليا ابوماضي في العدد ٤١٠٩ من جريدة « الديار » البيروتية الصادر بتاريخ ١٧ اذار ١٩٥٨ حيث قال: « ترى هل كانت الرابطة القلمية معملا لتخريج الكتاب والشعراء او لصنع النوابغ ؟ وكم من الشعراء « اهدتهم » الى العالم العربي ... انها بالعكس كانت تستهزىء بادباء العرب وتصعر الخد للريحاني لانه كان واقعيا ونحاول الحط من منزلته . ونعيمة خاصة كان فؤاده يتلهب حسدا من ايليا ابوماضي لانه بنى شهرته قبل ان نلصق به لصقا عضوية الرابطة الاسمية . وما كان يجرؤ على اعلان حسده لئلا يمزقه قلم ايليا تمزيقا فاعلنه بعد موته . وقانا الله شر الغرور .» .

ابرز ما في وجهه الجبين والعينان . في قيافته بساطة قروية تفتقر الى الذوق . وفي صوته جفاف لا ترطبه عذوبة . قوي العارضة . فياض القريحة . طموح لجوج في بلوغ مطامحه . سريع الاقتباس . واسع الحيلة في كسب رزقه وفي الوصول الى اهدافه . متقلب في صداقاته وعداواته حسبما تمليه عليه مصلحته . فيه شيء من طبيعة الحمامة وشيء من طبيعة العقرب . صادق الريحاني زمانا ثم انقلب عليه فاتهمه بالتجسس للانكليز .

ونقم على جبران فكتب عنه مرة في « مرآة الغرب » في صدد الكلام عن مرضه وقال « العقل السليم في الجسم السليم » . وكان من قبلها قد كلف جبران كتابة المقدمة للجزء الثاني من ديوانه . ودونما اي سبب اعرفه كتب مرة مقالا يهجوني فيه اقذع الهجاء . ثم لم يلبث بعدها ان كلفني كتابة المقدمة لديوانه « الجداول » فكتبتها . وبقيت العلاقات بيننا على اصفاها حتى اخر حياته . واشتبك قبل وفاته بقليل في مهاترة صحفية مع عبد المسيح بلغت منتهى البشاعة والبذاءة من الجانبين .

تزوج ايليا احدى بنات صاحب « مرآة الغرب » . ورزق منها اولادا . اشتغل في اول حياته المهجرية بالتجارة مع شقيق له . ثم في تحرير « مرآة الغرب » و « الفتاة » ثم اسس مجلة شهرية متواضعة باسم « السمير » . وبعد سنوات حولها جريدة يومية . فكانت السبب في انتشاله من ضيق العيش الى شيء من البحبوحة في اخر حياته » .

ولم يكتف ميخائيل نعيمه بهذا التعريف الذي لا يخلو من الحقد والتجريح وانما اتهم زميله ايليا في معرض حديثه عن ثقافة رفاقه في الرابطة القلمية بقوله (٩) (... وهذا القليل الذي كانوا يعرفونه ساعد بعضهم ـ مثل ابو ماضي ـ على اقتباس بعض الموضوعات الشعرية من قصائد كانت تنشر في بعض الصحف اليومية ) .

واذا صحت اتهامات ميخائيل نعيمة لابي ماضي ـ والعياذ بالله ـ فلا يصح ـ عندئذ ان نحشر إبا ماضي الا مع الطبقة الرابعة من الشعراء ومع الطبقة الاولى من الدجالين المشعوذين ... ولو كان (نعيمة) سليم القصد في عرض هذه النقائص العديدة عن صديقه وزميله لاكتفى بقوله عن (قيافة) ... صديقه (في قيافته بساطة قروية) من غير ان يذكر (تفتقر الى الذوق) فالتغاضي عن ذكر هذا الامر مما يوجبه (الذوق) السليم ... واما قوله في وصف صوت ابي ماضي (في صوته جفاف لا ترطبه عذوبة) فيثير السؤال الثاني : هل كان ابو ماضي وحده دون اخوانه في الرابطة القلمية ذا صوت جاف لا عذوبة فيه ؟ ولو فرضنا ان هذه الملاحظة قد انطبقت على صوت نسيب عريضه ـ الصديق الحميم لميخائيل ـ فهل كان قلمه يطاوعه على ذكر هذه (العويهة) ـ اذا صح التعبير ـ في صوت نسيب في معرض تعريفه له ؟ .. واما ان يكون ابو ماضي (الجوجا في بلوغ مطامحه) فهذه مزية لا سبة ... ونعم اللجاجة في سبيل بلوغ المطامح .. وما اسمى مطامح شاعر :

نشر الطيوب على دروب حياته وسرى هوى في الطيب والانداء
واطل من قلب البخيل سماحة وشجاعة في السلم والهجاء
ومشى الى المظلوم بارق رحمة وهوى على الظلام سوط بلاء (١٠)

واما عن قوله عنه بانه كان (سريع الاقتباس) فهذا اتهام لو كان معززا بالدليل لسلمنا به مرغمين ذاهلين . ونعيمة لا يجهل ـ وهو من دارسي القانون ـ ان الاتهام بلا دليل حجة على المدعي لا على المدعى عليه ... واذا كان ايليا ابو ماضي « واسع الحيلة في كسب رزقه » كما يقول نعيمة عنه فمن من اعضاء « الرابطة القلمية » كان (ضعيف الحيلة في كسب رزقه في تلك الديار الغريبة النائية ؟ ولا ادري ما المقصود بالحيلة في قاموس نعيمة ... فاذا كان يقصد ـ والاقوال كالاعمال بالنيات ـ ان ابا ماضي لايتورع عن اتباع الوسائل غير اللائقة لكسب رزقه فهو على ضلال عظيم .. وحسبي ان استشهد في هذا المجال بقول رفيق ايليا في العمل توفيق فخر الذي وصف اتعاب ابي ماضي الجسيمة في كسب رزقه الحلال بقوله (١١) :

« عندما ترك رئاسة تحرير جريدة « مرآة الغرب » النيويوركية انشأ مجلة «السمير» فراجت رواجا حسنا

(٥) ذكر عيسى الناعوري في كتابه « ايليا ابو ماضي» منشورات عويدات سنة ١٩٥٨ في ص (٢٦)مايلي عن احدى افتتاحيات ابيماضي الاجتماعية : « اذكر انه افرد مرة افتتاحية الجريدة لمعالجة قضية اجتماعية قبل ان يكترث لمثلها مجتمعناالشرقي فقد قرأ اعلانا في احدى الصحف اللبنانية يبحث فيه صاحبه عن « خادمة لبيته لا يزيد عمرها على١٤سنة » . فعصف الالم بنفسه . فسكبه في افتتاحية جريدته ثورة عنيفة على المجتمعالذي يسمح لطفلة في مثل هذا السن الغضة بان تغادر مقاعد الدراسة لكي تعمل في البيوت لقاء اجر يمنحها الطعام والكساء . وكان رائعا في معالجته لهذا الموضوع قويا في دفاعه عنه ». (٦) نشرت نصه مجلة « الاديب » البيروتية في عدد (آب ١٩٤٧ )نقلا عن جريدة « السمير ».

(٧) منشورات عويدات ص ١٢٣ ـ ١٤٢ ( ٨ ) ص ١٧٩ . (٩) سبعون ـ المرحلة الثانية ص ١٨١ . (١٠) من قصيدة ابيماضي عن نفسه في حفلةاليوبيل الفضي لجريدة السمير راجع ديوان « تبر وتراب » ص ٤١ ـ ٤٦ . ( ١١ ) ايليا ابو ماضي كما عرفته ـ مجلة « الاديب » البيروتية ـ فبراير ١٩٦٠ . (١٢) مجلة «الاديب» فبراير ١٩٦٠ . (١٣) ديوان «تبر وتراب » ط دار العلم للملايين ص١٧٤ ـ ١٧٧ (١٤) قال ، ابو ماضي في العدد ١٨ سنة ١٩٣٥من السمير ، (الكتاب مزروع الحقول بالاشواك الحادة بيد طالما زرعت لجيران الورد حال حياته ) . وقال في العدد ١٩ منالسنة نفسها: ( اذا كان يعاب منيصلب حيا فما قولك بمن ينبش ميتا من قبره ويمزق عنه الاكفان ويعلقه على صليب من شوك ؟..)

الا أن نفسه الكبيرة كانت تطمح الى اصدار جريدة يومية فاقدم على هذا العمل الخطير بتحويل المجلة الى جريدة يومية في زمن عصيب وبرأس مال زهيد جدا فواصل النهار بالليل عاملا مجدا فأتقن صناعة التنضيد والطباعة وكان بوسعه ان يقوم مقام اي عامل فيالجريدة حينما يظطر احد العمال الى التغيب موقتا . وما زال يسير بسميره من ازدهار الى ازدهار حتى بلغ بـه معارج الفلاح وفاز باقتناء بناية خاصة للجريدة جهزها بسائر ادوات الطباعه

واما قول نعيمة عن ابي ماضي انه (متقلب في صداقاته وعداواته حسبما تمليه عليه مصلحته) فيعني ان ابا ماضي لايعرف غير صداقة المصلحة وانه انسان اناني (نفعي) . ولماذا نلجأ الى التأويل وقد اغنانا نعيمة عنه بقوله مباشرة بعدهذه الجملة :(فيه شيء من طبيعة الحمامة وشيء من طبيعة العقرب) . ورغم اننا لا ندري كيف تمتزج الطيبة المتناهية – طبيعة الحماقة – مع الغدر المتناهي – طبيعة العقرب – في انسان ما فان نعيمة لميصور لنا الا طبيعة العقرب في ابي ماضي مما يدل على انه يتعمد تهويل الضعف البشري الذي قد يكون ايليا من المبتلين ببغضه وان نفسية ابي ماضي كما يصورها قلم محاسب جريدته ورفيقه الامين توفيق فخر تناقض هذه النفسية المتفسخة التي يصفها لنا قلم ميخائيل نعيمة فقد قال توفيق فخر يصف نفسية ابي ماضي (١٢) ما اليك نصه

« ليس من شاهد ادل على نفسيته واخلاقه من قصيدته التي عنوانها « أنا » ففيها البيان الصريح عما طبع عليه من المحبة والاخلاص والوفاء لاصدقائه وهذه بعض ابياتها :

حر ومذهب كل حر مذهبي ... ما كنت بالغاوى ولا المتعصب
اني لاغضب للكريم ينوشه ... من دونه والوم من لم يغضب
انا لا تغرني الطيالس والحلي ... كم في الطيالس من سقيم اجرب
إني اذا انزل البلاء بصاحبي ... دافعت عنه بناجذى وبمخلبي
وشددت ساعده الضعيف بساعدي ... وسترت منكبه العريّ بمنكبي
فاذا رآني ذو الغباوة دونه ... فكما يرى في الماء ظل الكوكب

قد يقول البعض ان هذه القصيدة تحوى غلوا فاحشا كما هي العادة المتبعة عند الكثيرين من الشعراء فلاجل نقض هذا الادعاء اقدم دليلين من ادلة عديدة :

عندما اشتدت الضائقة المالية في الولايات المتحدة تلكأ عدد غفير من مشتركي جريدة السمير عن دفع بدلات اشتراكاتهم بضع سنوات وقد نصحه كثيرون كي يحجب الجريدة عنهم فلم يفعل وكان جوابه الوحيد انهم كانوا انصار الجريدة الاوفياء في زمن الرخاء فلا اتخلى عنهم في زمن الشدة . فلما نشبت الحرب العالمية الثانية ونشطت حركة الاشغال العمومية قدر لـه اولئك المشتركون تلك العاطفة الشريفة واقبلوا على دفع كل ما كان يطلب له منهم فتدفق عليه المال بغزارة . ومن مزاياه انه كان لا يطالب اديبا ببدل اشتراكه ولكنه لا يحجم عن قبول المبلغ اذا ارسل الاديب بدل اشتراكه من تلقاء نفسه .

رافقته سنين عديدة غير انني في السنوات الاخيرة من مرافقتي لـه لم اقض بالعمل سنة واحدة بكاملها فاحيانا كنت اعمل في احدى السنينساعاتمعينة أسبوعيا وأحيانا اشهرا معينة وكثيرا ما اختلفت واياه وغادرت الاداره فكان يتوسط بيننا المتقدم بالكهنة مكاريوس المر . على ان اختلافا اخيرا حدث بيني وبين ابو ماضي لم يتصل سمعه بالكاهن مكاريوس لانه كان مريضا وفي خطر الموت . وقد توفي بعد يومين من ذلك الحين فوقع علي الاختيار لترأس حفلة تأبينه وكان في عداد المؤبنين ايليا ابو ماضي فاجتمعنا لترتيب امور الحفلة وتصافت قلوبنا فكان ذلك الكاهن الصالح واسطة سلام بيننا حيا وميتا .

قصدت في احد الاعوام القيام برحلة الى الجمهورية الدومنكية فجئته مودعا فقال لي : اني كنت على اهبة ان ادعوك لتناول طعام الفداء معي . فانتدبنا مطعما قريبا وفي اثناء وجودنا حول مائدة الطعام سحب من جيبه غلافا مختوما ودفعـه الي قائلا : اسألك ان لا تفضه الا بعد عودتك الى المنزل . فعملت بموجب رغبته . وعندما فضيت الغلاف وجدته يحوى على حوالة بمائة دولار وبطاقة كتب عليها الابيات التالية :

رافقك الهناء يا رفيق ... وعدت بالتوفيق يا توفيق
يا شاعر اخلاقه كشعره ... متانة كقلبه رقيق
انت صديق لا يحول وده ... في زمن قل به الصديق

ايليا

فاثر بي جدا هذا الاخلاص العظيم وخاطبته شاكرا ومتسائلا لماذا لم يدعني افتح الغلاف بحضوره . فأجاب: لاني اخشى انك كنت ترفض الحوالة بكل تأكيد . ولم ازل احتفظ بتلك البطاقة التاريخية الثمينة » .

واما انه اصادق الريحاني زمانا ثم انقلب عليه فاتهمه بالتجسس للانكليز) فليس في هذا الامر غرابة فالجفاء كثير ما يحصل بين الاصدقاء فيلوث الظنون وينعش الحقد ويستفز الضغينة . الا ان ابا ماضي وان ساءت ظنونه بالريحاني في فترة ما لاسباب نجهلها كل الجهل فانه لم يسمح للحقد ان يستقر في قلبه وما كاد يسمع بنبأ وفاة صديقه امين الريحاني حتى رثاه بموشحه الرقيق « مازال في الارض حيا» (١٣) ونفى في هذا الموشح شكه باخلاص الريحاني في عقيدته السياسية حيث قال :

لم يعفر جبينه في التراب ... لم يوارب في موقف لم يحاب
لم يبع قومه من الاغراب ... لم يعفّر جبينه في التراب
لم يكن خائنا ولا اميا

واما انه قال عن جبران ذات مرة في جريدة « مرآة الغرب » في صدد الكلام عن مرضه (العقل السليم في الجسم السليم) رغم كتابة جبران لمقدمة الجزء الثاني من ديوان ابي ماضي فهذا يدل على قوة شخصية ايليا بحيث

# هذيان حزين

سأبكـي ..
كلما لمست ايادي الامس اجفاني
واركل حرفـي الملثـوغ .. اركله ،
اذا طرقت حروف الامس آذاني
لقد سئمت داور الدم اوردتي
واغنيتـــي ...
تحـن اليـوم للماضـي ،
لخطـوة ضوئي الاولـــى
تحـن لها .. وتذكرهـا .. وتبكيها ،
فابكـي مرة اخرى .. وانتحب

ظـلال الامس لـم ترحل
ظلالك يـا بساتيني
بقلبي .. كلها ظلت .. ولم ترحل
وزرعي لم يعد مهمل
والحاني التي زرعـت بقلبك يـوم ان كنا
تعود اليـوم .. توقظني بقـاياها
فالثمهـا .. اهدهدها ..
وتغفو في شراييني

لحونـي .. كيف انساها ..
وانسـاك .. ؟
سأبكي كلما لثم اشتياق الروح .. ذكراك
واقضـم مـر اشواكـي
واصفع قلبي المضنـى ..
ساصفعـه
ليبكي مرة اخرى .. وينتحب

دروب الضـوء ...
يا ضوئي .. ويا رفات اجفانـي
أأبقـى امضغ الحجرا .. ؟
بـلا جـدوى
ايبقـى قلبي المحزون يحفر في دمـي قبرا ؟
يسامـر صوته السهـرا
وينتظـر
لعـل زهـور ماضيه الذي اندثـرا
ستبعـث مرة اخـرى
وتحضنها بساتينـي
ازغـرد أكثـر انثـر
علـى قلبـي

لقد سئمت دوار الدم اوردتي
دروب الضوء ما عدنا نطيق الآه .. والقهرا
دعيني المس الجدران اجمع حبر اوراقي
اسامرها . .اذكرها بخطوة ضوئي الاولى
دعيني اطرق الابواب .. اصرخ انني باق
والا فليصب الحزن سما فوق احداقي
لابكـي مرة اخرى .. وانتحب
فديتك . مهجتي . قلبي .حروفي كل ما اعشق
فديتك ايها الزورق

سـآتي حامـلا صوتي
سـآتي قبل ان اغرق
باكفاني .. فانذر

بغـداد — فيصل السعد



انه لم يكن تابعا لهذا او لذاك فتحول المنة عنده دون مايريد ان يصرح بـه قلمه الحر الجبار . ولا خير في مقدمة تكون كحجر الرحى في عنق المؤلف . . .

واما ان ابا ماضي كتب يوما مقالا يهجو فيه ميخائيـل نعيمة من غير سبب فمسألة فيها نظر . . . اذ لا يمكـن ان يقدم على مثل هذا التصرف الا المجنون ولم يتكرم نعيمـة عندما وزع العاهات على رفيقه بسخاء بعاهة الجنون عليه فلا يعقل والحالة هـذه انه هاجم نعيمة من غير سبب . . . ولا يعقل ان ميخائيل نعيمة عندما كتبهذا التعريف الزاخر بالتجريح عن ابي ماضي بعد وفاتـه لم يكن حاقدا علـى ابي ماضي بسبب ما كتبه ابو ماضي في «السمير» مـن تنديـد ببعض مآخذ كتاب نعيمة عن «جبران خليـل جبران» (١٤) واخيرا فليس من صالح نعيمة ان يقـول: (وبقيت العلاقات بيننا على اصفاها حتى اخر حياتـه) لان ذلك يعني ـ والحالة هذه ـ ان نعيمة كان يتظاهر بالـود والصفاء والمحبة ويكتم في قلبه هذا الحقد الذي اعلنه بعد وفاة ابي ماضي . . . سامح الله نعيمة وسامح كل حاقـد على شاعر انساني نبيل كابي ماضي . . . على انني لا ابرىء ابا ماضـي مـن بعض العيـوب والنقـائص التـي تنسجم مع منطق الضعف البشري . . . ولكن يعز علي وعلى كل منصف ان ارى ويرى هذه العيوب تبيض وتفرخ فـي عقول كبيرة . . . واذا بها ـ وهي العيوب المعدودة ـ تتكاثر ويزداد خطرها وفقا للاهواء والاغراض الشخصية . . .

بغـداد — حارث طه الراوي

عندما تهمس الساعة لليل انه بلغ المنتصف . هناك . في راس الزقاق الطويل ، الذي جعله المصباح الهرم اشبه باخطبوط يمد ارجله الى جهات غير متناسقة ، كان يبدو هيكل انسان يسير متداعيا حتى ليبدو وانه سيقع بعد كل خطوة يخطوها . يغوص الشبح في المياه فيصدم رذاذها الجدار الذي يتلمسه حينا وتصدمه يداه المدودتان حينا اخر وقد انفجرت اصابع قدميه العاريتين المتشققتين، فكانها تحاول الفرار من برودة المياه وقطع الزجاج المسننة .

ويبلغ اخر الزقاق فيقطع ساحة صغيرة ، ويقف امام باب سميك كالح يطرقه بيديه المفوطتين فيجيبه بعد مدة طويلة صوت ممطوط ناعم به قسوة تلسع القلب :

ــ انت يا حامد ؟!

ــ اجل يا امي .. يكاد البرد يجمدني .

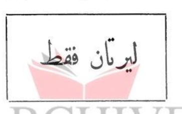
ــ امعك الليرتان ؟؟

فيجيب وهو يخشخش بيده القطعتين الفضيتين وضحكة غريبة تنبث من فمه : اجل يا امي . اكاد اموت جوعا وبردا .

وتفتح له الباب امراة متشحة بالسواد . وجهها شاحب معروق . وتمد له كفها الخشنة ليضع فيها الليرتين ، فتسقطهما في صدرها وتتركه واقفا في المر عائدة الى المكان الذي خرجت منه دون كلمة ما ، ويسمع صوت انطباق الباب خلفها فيتحرك في المر ، يتلمس جداره الرطب الى غرفة اكثر دفئا . ويرتمي على بساط غطى جزءا صغيرا من المكان . ويحرك يديه على البساط فترتطم احداهما باناء طعام او بقايا طعام وفتاتمن الخبز . يلملم كل هذا ويكاد يلصقه بجسده الناحل . ويتبلغه بهدوء ، ثم يدفع بالاناء بعيدا ، وبعد ان يتجشا ملء فمه ويغمغم بكلام يظن معه انه يطرد تلك الاشباح المحيطة به كما يصورها خياله ــ يتدثر باسمال سميكة بقربه ويضع مثلها تحت راسه ، ثم يجول بعينيه في ظلام السقف فلا يبصر شيئا لانه .. اعمى .

كان في الخامسة عندما مات ابوه منذ اربع سنوات . وكان حامد كل تركة الاب الطيب للام الشرسة . واول ما لمس آلام واقعه كان ذلك على يد امه . لم يفسر عقله الصغير سبب ذلك ؟! اجريمته هو ان كان قد خالف طبيعة الناس واستقل عنهم بعينين لا تبصران ؟

كان يشعر بانها لا تحبه ، وانها كذلك غير راضية على انه ولدها .. وكم كلفه ذلك الذنب الوانا من الشقاء ، فكان ما يخفف اساه بعض




بقلم محمد نديم



الشيء ابوه الذي ما كان يبخل عليه بكثير من .. الشفقة .

ولكن الاب مات . وسرعان ما تزوجت الام رجلا اخر اخذ يشاركها مهمتها الرئيسية .. التنكيل بحامد وهذه المرة ايضا لم يجد لتلك المعاملة سببا .. وتعودها مع الايام . ثم لم يعد يتقي صفعات ابيه الجديد بيديه . يكتفي برفيف جفونه واحناء راسه بذلة واستكانة .. كان يدفع ذلك ثمنا لبقايا طعام اولاد امه ، ولتلك الرقعة من المستودع التي ينام فيها .

وضاق الجميع ذرعا بذلك الاعمى الذي لا عمل له غير الجلوس القرفصاء




وتحريك عينيه المطفأتين في كل الاتجاهات .. وقالت له امه يوما ويدها تعبث بشعر طفلها الصغير المورد الخدين :

اصبحت كبيرا يا حامد . وعليك ان تدبر معاشك من الان فصاعدا .

قال وعيناه ترتجفان :

وماذا سأعمل .

اجاب زوج امه وهو يغمزه برأس حذائه : الشوارع مليئة بالمتسولين .. وليس كثيرا عليك ان تكون متسولا .

وايدته الام بحزم :

ستأتيني كل يوم بليرتين .. وليكن معلوما لديك انك لن تجد في هذا البيت مأوى لك ان اتيت ليلة ويدك فارغة ..

ودارت الايام بحامد والتسول حرفته . كان يقبل الايدي ويذرف الدموع كي تتجمع لديه الليرتان ، ليرتان فقط .. لا يبغي اكثر من ذلك .

وذات ليلة قاتمة الاديم . لم تجد دموعه . ولم يحصل على الليرتين . وانتصف الليل وما ظفر بشيء . وعكس المصباح الهرم خياله الكئيب قادما يترنح . ولم يرتطم رذاذ الماء بالجدار كالعادة ، لانه كان صقيعا يلمع في الحلكة . وكانت ريح شباط تعصف فتحرك المصباح القديم وشعر حامد الاشعث ، وتلسع صدره واعالي ساقيه . وقف امام الباب السميك يلهث وقرعه بيده المزمومة فأجابه بعد مدة صوت امه المدود :

انت يا حامد ؟!

الا ان البرد كان قد ربط لسانه فلم يجب الا بغمغمة واهنة . اتاه الصوت المدود ثانية يلسع قلبه :

ــ امعك الليرتان ؟!

ــ لا يا اماه ..

اجاب بعويل وهو يلتصق بالباب ، يحتمي من الريح التي اقتلعت جزءا من أسماله . قالت وصوتها

# الموت وقباب الشمس

الى شقيقتي .. وهي تأخذ دربها نحو الله

●

خيط ، من العفة الشقراء .. قافلة — من دمعنا المر ..دربي .. ضيفك الاتي
من دمعة الطفل انقى من طفولته — اصفى من الحلم ، في اهداب ريشاتي
علوية الروح .. ما طافت بمقلتها — غير الصلاة .. واطياف المنيات
ولون مقبرة .. عتماء .. معولة — تغزو بها الريح ، احضان المتاهات
شالت اليك .. رماد النوح في كفن — قدت ملامحه الخرساء .. من ذاتي

✲✲✲

في خاطري .. تتلوى الف مقبرة — نواحة الليل .. نهماء الجنازات
تصب شهقتها الثكلى على كبدي — ترش بالدمع والاكفان .. ابياتي
احسها صرخة تقتات من شفتي — تشد للموت .. امالي الحزينات
وتلك اختي اراها .. عينها .. فمها — تخوض في الشمس ، بكماء الشكايات
تومي الى الله .. كفاها .. عباءتها — تمد للدرب ، احداقا جريحات

✲✲✲

اختاه..طفلتك الخجلى .. ضفيرتها — بقية الجرح .. في ارض التعاسات
تسائل الله .. والدرب اللهيف ، وقد — ادمى تساؤلها المفجوع .. مأساتي
في راحتيها سؤال ، لاهث .. ابدا — معربد الجوع ، مبحوح النداءات
اختاه .. نعشك في صوتي وقافيتي — ووجهك الطيف غاف في جراحاتي
اراك ، خلف قباب الشمس غافية — في خيمة الله .. في عيني المدماة



✲✲✲

اختاه .. اي غد ، دام ، يعذبني ؟ — غدي !جراح الرؤى.. رجع المناحات
عرسان الموت .. ان نشقى بمولدنا — وان نموت ... بلا قبر ومرثاة

بغداد — علي جعفر العلاق

يبتعد :

اذن ارقد حيث انت ..

لم يصدق انها ذهبت الا عندما سمع صوت انطباق باب غرفة نومها . لم يصدق انها قاسية الى هذه الدرجة .. وعاد يطرق الباب من جديد ولكن لم يسمعه احد . سوى الريح .. صاح وهو يحس كأن اطرافه تشتعل :

امي افتحي لي .

وصفعته الريح فضاع صوابه وخنقه العويل :

امي اني اموت .. اقبل ايديكم افتحوا لي .

واخذ يضرب الباب بيديه حتى وهنتا ، احس بشيء يدب في جسده .. شيء ثقيل . واشتعل راسه . وبداذلك الشيء الذي يدب فيه اثقل من ان يحتمل . وفتر رويدا رويدا . والتصق وجهه بالباب ثم اخذ ينزلق ببطء حتى تكوم جسده على عتبة الباب ..

عندما بزغت الشمس متأنيه في صباح اليوم التالي وغمرت الزقاق الساكن .. كان اول من دثره شعاعها .. جثة صغير اعمى ، تكومت بفم مزموم ويد مفتوحة كأنها تطلب من الناس .. احسانا ..

القامشلي ـ سورية — محمد نديم



يوسف عبد المسيح ثروة

# الخائضون في الجحيم

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

تنسي وليمز كاتب مسرحي اميركي له شهرة طائرة في مجالات الادب الحي ، واسلوب بارع في تناول الشخوص وقدرة رائعة على تصميم الحبكات المسرحية ، وسبك محكم للحوار باشكاله المختلفة واحواله المتباينة . واعماله الادبية، على وفرتها ، تمتاز بخصال رفيعة تتجلى في صدق لطيف وانسانية شفافة ولغة بسيطة. ومع مرارة الموضوعات التي يتناولها لاستعراضها وتشريحها ، ومع الصراحة الكاملة التي تعتورها، فانه رفيق مع شخوصه حادب عليها ، متساهل مع معاصيها وآثامها ، كريم في معاملته لها ، يأخذ الناس بما هم ، لا بما يجب ان يكونوا ، شعاره النزاهة في القول واللطف في الاداء ، وتخريج الامور تخريجا طبيعيا ، لا تكلف فيه ولا تصنع ، وهو في ذلك تلميذ امين للمدرسة النقدية الطبيعية التي وضع اسسها الكاتبان الفرنسيان الكبيران اميل زولا وغوستاف فلوبير .

اما الموضوع الرئيسي الذي يستأثر منه بالاهتمام الشديد فهو الجنس ، الجنس في عريه ، في واقعه ، في حقيقته في طبيعته الطينية ، في زئبقيته المترجرجة المتحللة من قيود الاخلاق واصفاد التقاليد والعادات . ارض جنسه رخوة لزقة آسنة في اغلب الاوقات ، اما السماء ، في شموخها واعتلائها على الجبال والوهاد ، فداكنة غائمة ، تمطر رذاذا من الغيث احيانا ومن رجوم الشياطين والنيازك والشهب احيانا اخرى ، لكن الصفاء والسماء بعيدان كل البعد الواحد عن الاخر . وعلة ذلك ، ان سماء الجنوب ( جنوب الولايات المتحدة ) وارضها منذ الحرب الاهلية ومقتل ابراهيم لنكلن وحتى الان ، ليسا بالسماء الاعتيادية ولا بالارض المعروفة .

ومن الامور التي لا يطالها الشك ان تنسي وليمز قد تأثر – في موضوع الجنس – ب د . هـ لورنس ، الكاتب الانكليزي الذي اذهل الجمهور البريطاني بقصته « عشيق الليدي تشاترلي » فاقامه واقعده وروعه وارعبه بصراحته الفاضحة واستطاعته السير في المناطق الحرام ، التي لا تستطيع حتى الشياطين وضع قدم فيها .

ان الجنس لدى لورنس قصيدة اخاذة جميلة الجرس متناسقة متكاملة تتغنى بها الطبيعة باسرها ، وهي تبدو ساطعة لماعة في مختلف مخلوقاتها ، في الوان اسماكها الزاهية ، وريش طيورها وحمرة وجنات بناتها وابنائها من بني البشر . والجنس ، في الوقت نفسه ، هو عنصر الديمومة والاستمرار ، اكان ذلك على الصعيدين الانساني والحيواني ام على اي صعيد آخر مما نعرفه او لا نعرفه من هذه الطبيعة العجيبة التي يزداد جهلنا بها كلما ازددنا اطلاعا عليها . فاذا كان الجنس عنصر الديمومة ، اي عنصر الحياة ، فلماذا كانت تلك الضجة الصاخبة التي قوبل بها كتاب « عشيق الليدي تشاترلي » وبخاصة في انكلترا التي امتازت بمدى واسع من حرية الفكر والراي ؟ والجواب عن ذلك يتلخص بكلمة واحدة هي الرياء او النفاق الاجتماعي الذي يتبلور في الانفصام الشخصي ، وهو داء وبيل لا زال آخذا بخناق الانسانية ، منذ ان وجد الذكر حيال الانثى ووجد الستار الكثيف بينهما . على ان الصراحة في مضمار الجنس لا تعنى ابدا محاولة ازالة الضوابط الخلقية ، وزعزعة المثل العليا في الحشمة والاخلاق النبيلة الرصينة المهم ان الرياء الاجتماعي ، في هذا الصدد ، هو الذي ينبغي مقارعته ومصاولته ، لتنكشف الحقائق ، وتتبدى الخوافي وتتعرى الدهاليز النفسية ، لتمضي اليها اشعة الشمس فتطهرها من عفونة السموم، وتنقيها من ادغال السماجة واكداس التفاهة التي تراكمت مع الزمن حتى خنقت نفوس الكثيرين ، وحاولت ان تسمم غيرهم .

ومن هنا ، فان الجنس المغلف بالرياء ، هو جنس مريض وهذا ما اثبته علم النفس بادلة قاطعة وحجج دامغة، الا ان تعرية الجنس لا تعني التحلل بحال من الاحوال ، ولذا اقتضى الامر ان يكون تناول هذا الموضوع الحساس دقيقا كل الدقة ، سليما من المآخذ الصبيانية الفجة ، بعيدا كل البعد عن التبذل والترخص والانفلات القصدي من المقاييس والقيم الخلقية ، جديا كل الجد في المعالجة بعد تشخيص متأن حذر . ولما كان الانكليز تقليديين بطبيعتهم ومزاجهم ، ولما كان لورنس صريحا ، اشد ما تكون الصراحة ، يعطي للكلمة معناها الطبيعي العاري من غير التفات الى الرمز

وهو على عتبة الموت ينظر اليهـا نظرات مليئـة بالاعجاب الاجتماعي حادا كل الحدة وجسم المجتمع الطبقي البريطاني المريض مليئا بالقروح القائمة والافات الباطنية ، التي هي في اسوأ دركات التعفن والتبزل ، فان مـن حق الضجة العارمة التي افتعلت ان تكون على اوسع نطاق من الذيوع والانتشار وان يصار الى القانون والنظام لئلا تلوث العذارى وتسمم افكار الفتيان ويهدد المجتمع بافظع العواقب .

ومع ذلك فان لورنس لم يعن بالمضمون الاجتماعي للجنس عناية وليمز بـه ، لان شاعرية كتاباته تتصف بميزة مـن الاستعلاء والفردية والانسلاخ ، تجعله في واد والمجتمع في واد آخر وتجعله في جزيرة نائية عن يابسة المجتمع ، انه عندما يتغنى بجسد المراة ، يتغنى بها بصفتها انثى لا بصفتها زوجة تنجب اجيال المستقبل ، ولا شريكة للرجل تعمل على مساعدته واعانته على مكاره الدهر ونوازله ، ولا اما تسهر الليل حدبا على وليدها ، ان الذي يتحدث عنه لورنس هو الانثى ، الجسد في فتونه والغازه ومساربه واسراره ، في شطحاته وتعلاته ، فـي تقلباته وانثناءاته ، فـي التواءاته وانحناءاته ، في ايماءاتهوزفراته ، في تنهداته وآهاته وفيما الى ذلك من شؤون وشؤون . على حين ان وليمز لا يمضي كل هذه الطريق مع لورنس ، بل هو قد ينشق عنه ويحتذي طريقا اخرى ، فالرياء مثلا هو المحور الذي تـدور حولـه شخوص مسرحية «قطة على سطح من الصفيح الساخن» .

فالاب الحديث النعمة الذي تدرج من اجير بسيط الـى صاحب اطيان كبرى رجل مريض مصاب بالسرطان ، وهو يمقت زوجته التي عاشرها اربعين سنة ولكنه لا يكاشفهـا هذا المقت والابن الاكبر انسان خبيث جشع يكـره والده ولكنه يبدي لـه المحبة والاحترام ، اما الابن الاصغر فشخص سبق ان كانت له صلات جنسية بصديقه الذي توارى عن الانظار بعد ان تسلمه المـوت وهو في ريعـان الشباب ، الا ان الجميع ما عـــدا الاب اناس مراؤون (١) ، لانهـم يعرفون حقيقة مرض الاب غير انهم يخفون الواقـع عنه ، لان ايامه اصبحت معدودة وكلهم ينتظر ان تكون كذلك ، الا الام الغبية الغشيمة .

اما الوحيدة التي تحب بصدق وتكـره بصدق فهي مارجرت زوجة برك ، الابن المنحرف . انها هي القطة التـي تقفز من هنا وهناك على سطح الصفيح الساخن . انها هي القوة الخفية الخيرة في المسرحية كلها . الا ان العقم الذي ابتليت به يحز في قلبها ويجعلها تقول مخاطبة زوجهـا : « تصور يا برك ، لديهم خمسة ، والسادس في الطريق ، وجاءوا بالمجموعة كلها الى هنا ، كما كانوا حيوانات فـي سوق المدينة .. نحن لا اطفال لنا بالمرة ، وبالتالي لا نفع لنا بالمرة . هذا بالطبع امر مضحك ، ولكنه ايضا كريه ، مادام هدفهم واضحا . » (٢) الا انها تحاول التعويض عن ذلـك العجز المخزي بلفت النظر الى جمال جسمها وكيف ان الاب

والاشارة واللمحة الدالة البعيدة ، ولما كان مبضع لورنس والاشتهاء . فلنستمع اليها تحاور زوجها في هذا الشان : « اليس جميلا من ذلك الرجل العجوز الذي يقف على عتبة الموت، أن ينظر الى جسمي نظرة تقدير اظنانني استحقها!؟» وحين تذكر ان مي زوجة الاخ الكبير كانت يوما ما ملكـة القطن تجيب هازئة: « اما ان مي كانت ملكة القطن ــ كما يذكروننا دائما لكيلا ننسى ــ فهذا شرف لا احسدها عليه. تجلس على عرش نحاسي .. تبتسـم وترسل القبل الـى كل الحثالة في الشارع » .

غير ان هذا التنفيس الاصطناعي عـن آلامهـا المكبوتة لا يفيدها في شيء عندما تواجه حقيقة حالتها ومـا آلت اليه بين زوج مخنث عربيد وعائلة كريهة ، ولذا كان شعورها بالمأساة عميقا مزعزعا فيه مرارة الخيبة وحلاوة النضال وصدمة مواجهة الحقائق العاريـة ، وفيه شجاعـة نادرة وصبر جميل واعتلاء على المصاعـب المرعبـة ، واستهزاء بالمقادير ، واعتراف جريء بالواقع المر ، واقع الجحيـم الذي كانت فوق سطحه . وكيف لا تكون حلاوة النضـال من ابرز صفاتها وهي القائلة : « ما زلت في الميدان ، وانا مصممة على الفوز ، اي فوز هذا الذي تحرزه قطة علـى سطح من الصفيح الساخن ؟ بودي ان اعرف .. ان تبقى عليه اطول ما في استطاعتها على ما اظن » !؟ . اما مواجهة الواقع المر والمصارحة بحقيقته فهما يثيران الاسى والاسف والاشفاق ولا سيما لما تنطلق الكلمات التالية من بين شفتيها مدوية عنيفة . « الهروب مـن مواجهـة النـار لا يطفيء الحريق . ان السكوت عن شيء يجسم هذا الشيء . انـه ينمو ويتقيح في صمت ، ويصير شيئا خبيثا مميتـا » . وحين يذكرها زوجها بالشروط التي اتفق عليها للمعيشـة معا تنفي هذه الشروط وتنفي حتى المعيشة معه بقولها : « انا لا اعيش معك . اننا نحتل قفصا واحدا » . ثم لا تفتأ ان تتذكر الحال التيهي فيها فينتابها اليأس ويستأثر بهـا القنوط الى حد القول : « اوه برك . الى متى تدوم هـذه الحال ؟ هذا العقاب ؟ الم يمض زمنكاف ؟ الم تنقض مدة العقوبة ؟ وجوابا عن هذه التساؤلات جميعا تردد القـول بمرارة مرعبة « انا اشعر طوال الوقت كانني قطعة فـوق سطح من الصفيح الساخن . » ومن اجل ان تثير الرجولة في الفتى المخنث تحاول بعث الغيرة في زوجها الاسـمي فتقول : « ما زلت ادير رؤوس الرجال في الشارع . في الاسبوع الماضي عندما كنت في ممفيس ، اينما ذهبت كنت اشعر بملابسي تحترق من نظرات الرجال » .

اما حقيقة الفقر والخياطةفي جحيمه حتى الركبة فلا تعبر عنهما كلمات باحسن من كلماتها : « برك . لقد كنت طول حياتي فقيرة معدمة الى درجة تدعو الى الرثاء . هذه هي الحقيقة يا برك » . لكـن برك يجيبها ببرود فظيـع : « انا لا اقول انها ليست الحقيقة وردا على هذا البرود ،

تستطرد قائلة وكأن فمها بركان يقذف بالحمم لا بالكلمات: كنت مرغمة على ان اعيش عالة على ناس لا اطيقهم . كان لديهم مال وكنت مفلسة . انت لا تعرف ما معنى ذلك .. ان هذه الحالة تشبه كل الشبه حالتك لو كنت على بعد الف ميل من كأس الخمر ، وكنت مضطرا الى السير اليها على قدمك المكسورة بدون عكازة » ثم تمضي في اعترافها فتخبر برك بصلتها الجنسية بسكير متعللة بانها كانت تفعل ذلك ليحلم كل منهما انه كان يتبادل الحب معه ، وعلى سبيل الترضية والتهدئة تستمر قائلة : « ان حبكما كان حبا لا يمكن السير به الى غاية مرضية ولا كان يمكن حتى التحدث عنه بصراحة .. برك انا افهم كل شيء ذلك . وانا .. اعتقد ان ذلك كان نبلا مني والنقطة الوحيدة .. التي اريد ان اذكرها هي ان الحياة لا بد لها من ان تستمر . لا بد للحياة من ان تتصل ، حتى بعد ان ينقضي حلم الحياة . »

الا ان هذا الاعتراف يثير حفيظة برك فيضربها بعكازته التي تخطيء الهدف وهنا تتراجع عن تبرير سلوكها وتقول « اخطأتني . آسفة . انا لا احاول تبرير سلوكي .. انا لا خير في . لا ادري لماذا يحاول الناس الادعاء بانهم صالحون خيرون . ما من احد صالح او خير . قد يستطيع الاغنياء والمرفهون ان يحترموا النماذج الاخلاقية » اما هي فقد « ولدت فقيرة ونشأت فقيرة وتتوقع ان تموت فقيرة الا اذا استخلص برك شيئا مما سيتركه أبوه » وهذا هو بيت القصيد من ملحمة هذه القطة . هذا هو التناقض الاساسي في الحياة باسرها ، التناقض الذي يضع ثقل المال في كفة الاخلاق لترجح ، وبذا تكون الكفة الثانية فارغة ، وكيف لا يكون الامر كذلك ، وليس الفقر الا الفراغ المقابل لكل امتلاء ؟ . انه ضياع لكل معالم الحياة النظيفة واضاعة لكل مناقبها ، وكابوس مسموم يخنق كل نبتة خضراء ناضرة وكل نفس عامرة من الايمان بالانسانية الا النزر اليسير وهؤلاء هم الغالبية العظمى من البشر الذين يحملون اوزار ايامهم متثاقلين متبرمين ، كانهم لم يهبطوا الى هذه الدنيا الا ليسجنوا في اقفاص كبيرة او صغيرة كما هي الحال مع ماجي تلك القطيطة الحلوة الفقيرة ! اما الاب المريض الذي يدرج الى الموت بخطى سريعة فانه يحدثنا عن نفسيته وشخصيته واخلاقيته بلغة لاتنقصها الصراحة حين يتجاذب اطراف الحديث معولده برك الاثير لديه : هناك شيءاتذكره التلال المحيطة بمدينة برشلونة في اسبانيا . والاطفال يهرولون فوق تلك التلال الجرداء بجلودهم العريانة ، وهم يستجدون كالكلاب الجائعة وهي تصرخ وتنبح .. يا لله ! كنت ارمي اليهم بالنقود لاتخلص منهم فترة من الوقت تكفي لكي اعود الى السيارة وامضي في سبيلي » .

ارايت الى اي اسفاف تبلغ هذه الصفاقة التي تنبو عن كل ذوق مهما يكن قليل الحظ من السلامة ، ولكنها تفصح عن صفاقة كل رجل مليء الجيب فارغ الرأس ، ولا سيما اذا كان هذا مليونيرا لم يعرف من الحياة شيئا غير الجشع واكتناز المال واحتقار الانسان واقتلاع كل معلم من معالم الخير في نفسه .. واذ شئت فاسمع عينة من فلسفته وهو لا يزال يحاور ابنه برك : « ان الحيوان البشري وحش يفنى ويموت . ولكن كونه يفنى ويموت لا يجعله يشفق على الاخرين .. وبعد ان يناول ابنه عكازته يستمر في كلامه في الحاح وعناد : «ان الحيوان البشري وحش يفنى ويموت واذا كان لديه مال فهو يشتري ويشتري ويشتري . واعتقد ان السبب الذي يجعله يشتري كل شيء يستطيع شراءه ، هو ان في عقله الباطن املا مجنونا في ان الحياة الابدية ستكون من بين هذه المشتريات » . وبعد ان يفضي بفلسفته هذه عن الحياة ينتقل الى الحديث عن الخوف من الموت وبخاصة اثر الاعتراف بحقيقة مرضه الخبيث ، ويقول: « ان الخنزير هو الذي يصرخ من الالم . اما الانسان فيكتم الامر في نفسه ، ولو ان الانسان ليست له ميزة الخنازير . وحين يسأله برك عن معنى هذه الميزة يرد عليه قائلا : « ان الجهل بالموت والفناء راحة . وهي راحة لا يتمتع بها الانسان . فالانسان هو الكائن الوحيد الذي يتصور الموت ويعرف ما هو » .

هذه ليست كلمات انسان يعيش في هذه الحياة ، انما هي وشوشات عفريت لعين يخوض في مسارب الجحيم . فلا ينطق بكلمة الا وسموم الافاعي تفح منها لتزيدها سعارا واوارا وشررا متطايرا وكيف لا تكون الحال كذلك وهو الذي يقول بشراسة ليست غريبة عليه : « كنت طول حياتي كقبضة اليد .. احطم واسحق وامزق بعنف وقسوة . » ولكنه يفكر الان . ففيم هذا التفكير بعد ذلك التحطيم والسحق والتمزيق ؟ انه يفكر في « اللذة مع النساء » وهو يقول في هذا الشأن : « ما زالت في بقية من الحيوية وساختار لنفسي امرأة جميلة ابددها عليها .. ساجردها عارية من ملابسها واغرقها في الفراء ، واخنقها بالماس » . وعلى هذه الشاكلة الجنسية البحت ينتهي هذا الرجل الى ما انتهى اليه من انانية فظة ، وسعار جنسي حامل بالمكاشفة والمصارحة . الا انه لا يلبث ــ في هذا المجال ــ الا قليلا ، اذ يعاود محاورة ولده عن سبب ادمانه على الخمر .

« الاب ! .. اجب عن سؤالي . لماذا تشرب ؟ لماذا تبدد حياتك هكذا كما لو كانت شيئا كريها التقطته من عرض الطريق ؟

برك : سأخبرك في كلمة واحدة .

ــ الاب : ما هي هذه الكلمة ؟

ــ برك : الاشمئزاز .

ــ الاب : الاشمئزاز من ماذا ؟

ــ برك : اما سمعت ابدا بكلمة « الرياء » .

ــ الاب : بالتأكيد . الرياء واحدة من هذه الكلمات الرخيصة التي يتبادلها السياسيون التافهون .. فكر في

كل الكذب الذي لا بد على ان اتحمله ، ادعاءات ومزاعم . اليس ذلك كله رياء . ان اكون ملزما مثلا بحب امك ؟ انا لم اكن اطيق شكل هذه المراة ولا صوتها ولا رائحتها خلال اربعين سنة .. واتظاهر بحب ابن الكلبة هذا جوبر وزوجته ميي وهؤلاء العفاريت الذين يصرخون في الخارج كالببغاوات في الغابة . والكنيسة — انها تضجرني ، ولكنني اذهب اليها . واجلس وانصت الى ذلك الواعظ الاحمق . النوادي الماسون . الروتاري . كلام فارغ » .

وبهذا الافلاس الذي اعلنه الاب يتقرر مصيره النفسي ويدق ناقوس الجنازة قبل ان تنطلق روحه فارة من جسدها مسرورة من هذا الانطلاق كل السرور لانها تخلصت من العفونة النفسية التي اسفت بشخصية الاب حتى هشمت كل آثار الخير في طبيعته . اذ انه لم يسع ، طوال حياته — الى شيء سوى ان يصبح مزارعا ناجحا ، على اكتاف العديد العديد من الحيوانات الادمية التي تبيع كدها ، حياتها ، وجودها مقابل لقمة سوداء مغموسة في عرق مر ودم فاسد . وطبيعي ان يكون الرياء هو المستنقع الذي عاش فيه الاب والذي تمكن بواسطته من ان يسرق اتعاب الاخرين ليجمع الاطيان الهائلة وملايين الدولارات ، وهو لهذا السبب لا يتنكر للرياء ، بل نراه يدعو اليه بحرارة الواعظ الذي يستحمقه ، لانه لا يجد بديلا في هذه الحياة فهو يقول : « الاب : لقد عشت مع الرياء ، فلماذا لا تستطيع ان تعيش معه . لا يوجد شيء آخر تعيش معه سوى الرياء هل تعرف شيئا آخر ؟ » فيجيبه الابن بالايجاب موكدا توكيدا ماديا ورافعا كاسه .

« برك : نعم . نعم . هذا ! الخمر . وهنا يسارع الاب بالرد على ابنه بقوله :

« الاب : لكن هذا ليس عيشا ، انه هروب من الحياة . »
الا ان الابن بدلا من ان يرد على ابيه يوكد مقولته :

« برك : وانا اريد ان اهرب منها . »

واذن توصل الاب والابن الى الحقيقة المرة القاسية : ان الحياة هي الرياء . وهل ادل على ذلك من قول الاب :
« الاب : ان اشمئزازك من الرياء هو اشمئزازك من نفسك .
وهذا ما يوكده برك ويعترف به بصراحة :

« برك : الرياء نظام نعيش فيه . الخمر وسيلة للخلاص ، والموت وسيلة اخرى » ويزيد على قوله هذا بان يقارن بين نفسه وبين غيره : « لعل كونهم احياء هو الذي يجعلهم يكذبون ، وكوني اكاد اكون عديم الحياة هو الذي يجعلني صادقا » .

ولكن سلطان الحياة ، سلطان الرياء والمال ، لا يلبث ان ينتصر في خاتمة المسرحية ، فينهار برك الصادق ليحل محله برك آخر يعرف كيف يستغل الكذب وهو عنصر الرياء الاساسي من اجل مصلحته الخاصة ، وكل ذلك بفضل القطة ماجي التي تستطيع بما عرفت به من تضحية وصبر على المكاره ان تفوز ببغيتها وان تقول وهي المنتصرة الغالبة : اوه ! انت ايها الرجل ! ما اضعفك وما اجملك حين تستسلم في وداعة ! كل ما انت في حاجة اليه هو شخص يستولي عليك في رقة وحب .. وانا استطيع ان افعل ذلك . انا مصممة ان افعل ذلك .. ولا يوجد من هو اشد تصميما من قطة على سطح من الصفيح الساخن . اليس كذلك ؟ اليس كذلك يا طفلي ؟ »

وهكذا يقدم لنا وليمز وصفا حيا للمجتمع المنافق المرائي الذي عاش بين مخالبه واكتوى بناره وخاض نار جحيمه باسلوبه الصريح البديع ولغته الشاعرية الاخاذة من غير تكلف او تصنع ، وهو — في ذلك — صادق مع قرائه كل الصدق .

اما المكابرة والفخفخة الكاذبة والتعلق السمج بالاوهام فتجدها جميعا متجسدة في شخصية بلانش ديبوا بطلة «عربة اسمها الرغبة» هذه الشخصية التي تمزقها التناقضات بين القديم الفخم والجديد الآسن ، بين بيل ريف ، وبين بيت اختها الحقير في نيو اورليانز ، بين اسرة ديبوا في عظمتها وجبروتها ونبلها التليد ، وبين حقيقة زوج اختها كوالسكي ، الرجل الاعتيادي التافه ، صاحب العضلات والرجولة والدم الحار . لكن هذا التناقض كان ينبغي له ان يسوى مع الرغام ، لو كانت بلانش منسجمة مع واقعها الذي استنزفته كل الاستنزاف في لوريل حيث كانت تتنقل من سرير الى سرير تروي العطشى بشبابها الغض بعد ان تنصلت من زوجها الفتى المدلل المخنث فانهارت كما انهار هو ايضا ، وهكذا ضاعت في لوريل بسبب ضياع آمالها في فتى آمالها . ومع ذلك ، كان حنينها الى حياة الجنوب الاسطورية قبل الحرب ، حنينا عارما قويا فيه جاذبية لا تقاوم ، لهذا نراها تهبط اورليانز وهي تحمل آمالا عراضا ، وترنو الى آفاق وسيعة ، وعوالم جديدة تعيد لها ما فاتها من مجد عتيق وبذخ وفير وكرامة ضائعة ، واذا لم يكن الامر لينتهي الى تلك الجنة فهو حتما منته بها الى الخلاص من جحيم البغاء الذي كانت تخوض فيه كيلا تموت جوعا وكي تستمر متشبثة بالعيش وحسب . الا ان صهرها بدلا من ان يأويها ويحدب عليها يغتصبها ويرمي بها الى مستشفى المجانين بعد ان يفضح امرها لصديقه متش الذي كادت الصداقة تتوطد بينه وبينها لكي تتلوها علاقة فصلة فرابطة !

---

( ١ ) هذا فيما يخص المرضى بالقياس الى الاب ولا شيء اخر ،
(٢) اعتمدنا في شواهد ( قطة على سطح من الصفيح الساخن) على ترجمة عبد الحليم البشلاوي لهذه المسرحية .
( ٣ ) المسرحية الامريكية : الن داونر : ترجمة : د. عادل عبد الحق. مجلة المعرفة السورية ع ٣٣ س٦٤ . ( ٤ ) عربة اسمها الرغبة ، تنسي وليمز : ترجمة ، عزيز متري عبدالملك .

يصف الن داونر هذه المسرحية وصفا شيقا فيه ايجاز ودقة واصابة بقوله : « هذه المسرحية لا تختلف في عالمها عن جزيرة يسكنها افراد يشعرون بالوحدة تحيطهم بحار قاتلة من جميع الجهات (٣) وهل اشد فتكا في النفس من بحر الذل والعار والفحش الذي كان يحيط ببلانش في لوريل وهو ما تصفه بقولها : « كنت اضطر الى الاغراء والتضليل واختار لنفسي الالوان الناعمة : الوان اجنحة الفراشة ووهجها حتى احيط نفسي بنوع من الجاذبية والسحر لاتمكن من سداد قيمة .. مأوى ليلة واحدة .. كنت ابحث عن حمى احتمي فيه عندما هبت من حولي العواصف واحاطت بي الاعاصير . كنت اهرب من سقف متداع مثقوب الى سقف متداع مثقوب آخر فلم اجد الامان ولا الاستقرار تحت اي منهما . ان الناس لا يرونك ــ الرجال بالذات ــ لا يعترفون حتى بمجرد وجودك ما لم يطارحوك الغرام . وما دام الانسان يبحث عن حماية الاخرين فلا بد له من ان يحملهم على الاعتراف بوجوده (٤) .

وهذه الوحدة التي اشار اليها داونر اشارة عابرة هي الحالة الشعورية المحرقة التي تشوي نفس بلانش شيا فتجعلها تتلوى كانها سمكة في رمضاء من الرمال النارية ولهذا نراها تخاطب ستيلا اختها متعلقة باهداب خيال متش : « اني اريد ان استريح ! اريد ان اتنفس في هدوء واطمئنان ثانية! اجل اريده ــ اريد متش .. بشكل فظيع ! فكري ! اذا حدث هذا فسأتمكن من الرحيل عن هنا ولن اصبح بعد ذلك مشكلة لاحد .. » .

وحين يريد وليمز ان يسبغ غلالة رقيقة من الرمزية على مسرحيته هذه ، لكي تكون للرغبة الشهوانية دلالتها المؤثرة يحمل بطلته بلانش على الضحك المتجهم وعلى القول وهي تخاطب متش متسائلة : « هل لا تزال تلك العربة التي يسمونها الرغبة تطحن الشوارع والطرقات في هاته الساعة من الليل ؟ » الا ان العربة تقف عند باب مستشفى المجاذيب بعد افلات متش من بين اصابعها وتدخل هي في ليل طويل بهيم بعد ان غادرت « عالم البهلوانات والممثلين ، العالم الذي كله زيف وتقليد » وبعد ان كانت تحلم « انها ستدفن في البحر ، وستكفن في كيس ابيض نظيف ويلقى بجثتها من فوق سطح البحر . وقت الظهيرة وفي وهج حرارة الصيف الى اعماق المحيط الذي تشبه زرقته اعين حبيبها الاول » .

اما الطائر الشاعر والموسيقي الفنان ، الذي ينام على مطبات الريح وهي متطايرة متناثرة في الاجواء الزرق اللازوردية فهو يفعل ذلك لانه لم يخلق بقدمين يرتكز بهما على الارض ، هذا الشاعر الموسيقي هو فال بطل مسرحية « اورفيوس هابطا » . ان كارول تطارده وتريده لها حبيبا عشيقا يروي نهمتها التي لا تنقع غلتها ، وكذا تفعل ليدي تورنس لعقيم قسرا وجبرا ، وهي المرأة المخصاب لو كان لحرثها خط من غيث مخصب . على حين ان بعلها رجل مريض يزوره مبعوث الموت حينا ثم يتركه لكي يزيد في الامه واوجاعه واسقامه .. جزاء له على ما اقترفت يداه بحق والد ليدي الذي ذهب ضحية حريق فظيع التهمه مع ما اتهم من حانة كرومه الدانية .. لقد اشتراها زوجها جاب تورنس وهي لما تزل في الثامنة عشرة ، اشتراها رخيصة ، لانها كانت كسيرة بعد ان قذف بها الى الشارع اثر احتراق والدها وبقائها فريدة وحيدة .

لقد كانت تكرهه كما كان يكرهها ولكن اصحاب الجحيم يتبادلون الكرة كما يتبادل اصحاب النعيم لطائف المحبة والالفة . وهكذا وقع فال الطائر الشاعر بين فكي هاتين المرأتين ، بين كارول وليدي ، كل منهما تريده لنفسها وهو لا يريد ايا منهما . ان كارول تستجذبه بعنف وتنصحه قائلة : « ما عليك الا ان تمسك بمن يقترب منك بكلتا يديك حتى تتكسر اصابعك كلها » . غير أن نصيحتها هذه لا تفيدها في شيء بل هو يزداد تمنعا تبعا لهذا الالحاح . وحين يسألها عن زينتها التي تجذب الانظار وعن سبب ظهورها بذلك المظهر الفاضح تجيبه باعتداد وتباه وعدم اكتراث . « انني عارضة ازياء ! اريد ان الاحظ وارى واسمع ويشعر بي ! اريدهم ان يصرخوا انني حية ! الا تريد ان يعرفوا انك حي ؟ » وعلى ذلك يرد فال : « انني اريد ان احيا وليس من شأني الاكتراث بهم وبمعرفتهم . »

اما ليدي ، فما ان تواجه فال او وهلة حتى تسأله : « بالله عليك عم تبحث هنا ؟ فيجيبها : « ابحث عن عمل » وهنا تقول ليدي « الاولاد من مثلك لا يعملون » . فيثير هذا الجواب تساؤله : « ماذا تعنين بالاولاد من مثلي ؟ » فترد قائلة : « هؤلاء الذين يعزفون على القيثارة والذين يتحدثون عن حرارة دمهم » .. وبعد اخذ ورد في موضوع الحرارة ينبري فال لليدي متجهما ويقول : « يقال ان المرأة تستطيع ان تحرق الرجل ، لكني انا الذي استطيع ان احرق المراة » وحين تذكره انه لا يفعل ذلك الان يجيبها : « لست متعبا ولكنني متقزز » . وعلى اثر فهمها العملي للنار التي تلتهب في نفس هذا الشاعر تسحب ليدي كلامها وتقول : « نعم تستطيع ! تستطيع ان تحرق المرأة وتدوس على رمادها لتتوكد من انطفاء النار » ! ولما تعلمها الانسة بورتر بالعار الذي لحقها منجراء ما فعلت مع فال تجيبها متحدية: « كلا اي عار هذا الذي فعلته . انه سرور عظيم » . وهكذا تتمكن النمرة من الشاعر الطائر ، ثم ينتهيان معا كما تنتهي كل الكائنات على يد زوجها الذي ينفجر ثأره مدويا في رصاصات لعينات . ويستمر جحيم وليمز يتلظى بشخوصه الاخرين .

**بغداد** — **يوسف عبد المسيح ثروة**




## سخرية الناي

مجموعة قصص ـ تاليف طاهر لاشين ـ ؟ صفحة ؟ مطبعة

الطاهران : طاهر حقي ، وطاهر لاشين : يصادفنا في فن القصة المصرية اسمان يخلط بينهما كثير من الناس لتشابههما في النطق وفي الاسمين الاول والثاني من الاسم الثلاثي الكامل ... وهما : محمود طاهر حقي ، ومحمود طاهر لاشين ... فكل منهما « محمود » ، وكل منهما «طاهر» ، ويفترقان في الاسم الثالث : حقي ، ولاشين . ويجر هذا التشابه في الاسمين الى خلط في نسبة آثار كل منهما الى صاحبه . ولكن لا بد أن نذكر ان محمود طاهر حقي هو صاحب « عذراء دنشواي » التي نشرت في صحيفة «المنبر» مسلسلة سنة ١٩٠٦ ، والتي نشرت مستقلة في كتاب سنة ١٩٠٧ ، ثم أعيد نشرها أو اصدارها في مشروع « المكتبة العربية » سنة ١٩٦٤ . اما محمود طاهر لاشين فهو صاحب « سخرية الناي » التي نعرضها اليوم هنا ، وصاحب « يحكى أن » ـ وهي مجموعة قصصية موعدنا بها في عدد قادم ـ وصاحب « النقاب الطائر » التي ظهرت سنة ١٩٤٠ بينما كانت الحرب العالمية الثانية في ثاني أعوامها ...

بين الهندسة والفن القصصي : لم يكن محمود طاهر لاشين قصاصا متفرغا لفنه القصصي الجديد على الادب العربي في القرن العشرين ، ولم يكن أديبا محترفا يأكل عيشه من مهنة الادب التي لم تكن تفتح بيتا ، ولا تصب في سراج البيت زيتا ... ولكنه كان مهندسا يعمل في الحكومة ، وفي مصلحة التنظيم بالذات ، في وقت عمله الرسمي من الصباح الى ما بعد الظهر ، وفيما بعد ذلك هو حر حين يقرأ ، وحين يؤلف ، وحين يختلف الى مقهى أو ندوة يرسم خطوط قصة ، أو يناقش في قضية أدبية ، أو يجوس خلال الاحياء الوطنية الموغلة في القدم ، العريقة في المحافظة ، فيفتح عينيه على دقائق من مشاهدها ، ويفتح أذنيه على كثير من ألفاظها وتعبيراتها ، ويفتح ملاحظته الواعية على كثير من مسالك سلوكها ، ومتاهات تصرفاتها ، ويحاول أن يصل الى أعماق نفسها ليرى مبلغ العلاقة بين الظاهر والباطن ، وبين المكشوف والمستور ...

وليس عجيبا ان يجمع أصحاب الفنون القولية بين أسباب عيشهم ، وظواهر فنهم . فلقد كان في القديم شعراء يشتغلون بالجزارة ، ورتي الملابس ، وتجبير العظام ، وطب العيون ، وخياطة الثياب ، وصناعة الساعات ... والشاعر « السري الرفاء » ، والحسين بن أحمد الجزار ، و « ابن الساعاتي » هم بعض شواهدنا على ما نقول . وما لنا نذهب بعيدا وقد كان الدكتور ابراهيم ناجي طبيبا وشاعرا ، وكان الدكتور أحمد زكي أبو شادي طبيبا بكتريولوجيا وشاعرا ، وكان الدكتور نقولا فياض اللبناني طبيبا وشاعرا ، وكان علي محمود طه شاعرا ومهندسا... فلم لا يكون محمود طاهر لاشين قصاصا ومهندسا؟؟

ولقد دخل القصاص محمود طاهر لاشين « المهند سخانة » ـ أو مدرسة الهندسة بالقاهرة ، كما دخل الشاعر علي محمود طه مدرسة الفنون والصنايع ، وكان الاول في قسم البلديات ، وكان الثاني في قسم المباني . ولا شك أن هندسة البناء وتصميم العمارة قد أثر في الشاعر علي محمود طه ، فتلمح في بناء القصيدة عنده هندسة وتصميما وزخرفة كأنها عمارة متناسقة .. ولا شك أن عمل طاهر لاشين في مصلحة التنظيم قد أعانه على خدمة فنه القصصي ، « فبفضلها ـ أي بفضل وظيفته في التنظيم ـ جاس خلال الاحياء الشعبية ، ودخل العديد من الدور ، وخالط أولاد البلد ، وعرف دخانيق القاهرة » كما يقول الاستاذ يحي حقي في مقدمة لهذه الطبعة الجديدة من « سخرية الناي » ويخيل الي أن الموهبة كانت ستمضي في طريقها ، سواء أكان طاهر لاشين في مصلحة التنظيم أم في غيرها ، وسواء أكان مهندسا أم غير مهندس ، فالفنان الاصيل الموهوب لا يتورع ولا يحجم عن أن يرتاد أي وسط ، وأن يدخل اي زقاق ، وان يندس بين أية جماعة ، ليصور لنا ما يريد تصويره ...

المقدمات للقصص : ليس عجيبا ولا مستغربا أن يلجأ مؤلف ـ مهما كان لونه ـ الى عمل مقدمة للكتاب الذي يدعه بين أيدي القراء . فهي كلمة رأى المؤلفون من قديم أنه لا بد منها بين يدي كل اثر من اثارهم. وخذ اي كتاب شئت منذ عصر التاليف والتدوين في الادب العربي ، فانك واجد للمؤلف كلمة ، طويلة أو قصيرة يقدم بها بين يدي كتابه ، ويوضح الباعث له على التاليف ، والمنهج الذي انتهجه ، وقد يذكر المصادر التي نقل عنها واخذ منها ، وقد يبالغ ـ قليلا أو كثيرا ـ من أمر نفسه فيمدح كتابه ، ويذكر أنه المصدر الذي فاق كل مصدر ، والمرجع الذي عليه المعول ! وقد ينكر اي جهد لسابق ، ويستنكر أية محاولة للاحق ـ كما فعل مثلا « ابن الاثير » صاحب كتاب « المثل السائر » في البيان والبلاغة والنقد ، فقد أسرف الرجل على نفسه في المدح والافتخار ، والتباهي والتعالم ، حتى كادت نغمته تكون ممجوجة في الاسماع ...

وقد تطول مقدمة المؤلف طولا يخرج بها عن ان تكون مقدمة ، الى أن تكون كتابا قائما بذاته . وقد تقصر الى حد لا تبلغ معه بضعة سطور . ومن المقدمات الطويلة ، مقدمة المؤرخ ابن خلدون التي كتبها على سبيل التقديم لكتابه في التاريخ المسمى « العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ».

فلا بأس على المؤلفين والادباء والقصاصين والشعراء والعلماء أن يكتبوا لكتبهم مقدمات ، مما لا يزال العمل به جاريا ، والعرف عليه قائما الى يومنا هذا . وكلنا نلاحظ استحداث نوع جديد من المقدمات في الكتب ، وهو تلك المقدمات التي نكتبها غير المؤلفين ، وكثيرا ما يجمع الكتاب بين مقدمة للمؤلف ، ومقدمة أخرى لكاتب يستكتبه المؤلف ، لمكانة خاصة ، أو لتخصصه في موضوع الكتاب ، او لاعتبارات أخرى . وقد لاحظنا أن محمود طاهر لاشين كان يلجأ في مجموعاته القصصية الى كتاب اخرين يقدمون له كتبه ، بالاضافة الى المقدمة التي يكتبها هو . فترى في الكتاب مقدمتين ، واحدة للمؤلف ، وثانية للمقدم ... وفي كتاب «سخرية الناي» ـ بل في هذه الطبعة الجديدة له ـ نرى ثلاث مقدمات : اولاها حديثة بقلم الاستاذ يحي حقي ـ على نحو ما يجرى عليه العمل في الكتب التي تصدرها « المكتبة العربية » ـ وثانيتها للمؤلف ، وثالثتها للدكتور منصور فهمي صاحب المقدمة في أولى طبعات الكتاب .

واذا كان صديقنا المرحوم الدكتور منصور فهمي قد كتب « لسخرية الناي » مقدمة سنة ١٩٢٧ ، فان المرحوم الدكتور احمد زكي أبو شادي قد كتب مقدمة « يحكى أن » التي ظهرت سنة ١٩٣٠ . اما « النقاب الطائر » التي ظهرت لطاهر لاشين سنة ١٩٤٠ فقد كتب مقدمتها الدكتور حسين فوزي ، وهو عالم أديب فنان يحسن كتابة

المقدمات ويجيد تدوين الذكريات والمذكرات ...

**المدرسة الحديثة والفن القصصي :** بعد جيل محمود طاهر حقي ، ومحمد تيمور ، وعيسى عبيد ، وشحاتة عبيد ، والدكتور محمد حسين هيكل وغيرهم من رواد القصة العربية ، حمل جيل جديد من القصاص راية القصة ، ولا شك انهم كانوا اكثر ادراكا للفن القصصي ، واكثر تجاوبا مع البيئة المصرية ، واكثر تشبثا بالشخصية المصرية ، واكثر بعدا عن الرومانسية وأسرافها في الخيال ، واكثر قربا من الواقع وتصويرا له واحساسا به . وندع للاستاذ يحي حقي يصور لنا هذه المدرسة الحديثة في مقدمته العميقة الواعية لمجموعة « سخرية الناي » حيث يقول في دقة وعمق ولطافة روح «بالرغم من هذا كله فنحن مدينون للمدرسة الحديثة بالشيء الكثير ، هي التي جاهدت من اجل ان يكون لدينا ادب اصيل ، نابع من كياننا ، وأسلوب متحرر من التكلف والميوعة ، هي التي ثبتت لفن القصة قدمه ووطدت سمعته ، وبشرت بالمذهب الواقعي ، فخلصتنا من نهنهة الرومانسية ، وهي التي حاربت الظلم والفقر والجهل والتخلف والنفاق - اكبر اعدائها - ورفعت مقام الفلاح ورجل الشارع ، ونادت بالتكافل الاجتماعي ، فمهدت ولا ريب لثورة سنة ١٩٥٢ ، ثم اقامتنا لاشتراكية عربية مستقلة ، لا تتنكر لعقائدنا ومثلنا الاخلاقيـة .

كانوا جميعا يأخذون عملهم الفني ماخذ الجد ، لا يبتغون مجدا ولا كسبا ، وكانت عيونهم مؤرقة وقلوبهم خافقة بحب مصر ، لم يعشقوا مخلوقا مثل عشقهم لها . كان محمود طاهر لاشين في مسرحها هو ممثلها الاول ، ونجمها المتألق ، وكان الدكتور حسين فوزي هو المخرج والملقن ، هو أشدهم اتصالا بحضارة الغرب وايمانا بها ، وذهنه اكثر تفتحا وادراكا لمعنى الفن ، هو الذي يحرس محمود طاهر لاشين ويحوط عليه بكفيه ، يحثه على الصبر والاجادة وعلى توسيع افقه الثقافي بالاطلاع على أدب الغرب والشرق معا ... هو دليلهم في الذهاب الى مسرح الكورسال لحضور الفرق الاجنبية من موسيقية وتمثيلية . وكان حسن محمود يمتهم برقته وصفاء روحه وكرهه للتعصب واللجاجة ، هو والدكتور حسين فوزي قنطرتهم للعبور الى الموسيقى الاوروبية ، وكان ابراهيم المصري هو الذي يحدثهم عن امجاد المسرح وبلزاك وبقية اعلام الادب الفرنسي ، وكان ناظر المدرسة - المرحوم أحمد خيري سعيد - هو الذي يسلكهم في عقد واحد ، بفضل سماحته وقدرته على فض النزاع وارجاع كل المناقشات الحامية الى العناصر العملية المفيدة . كانوا جميعا لا يعرفون الدنس ولا الشر والدناءة . وكانوا اذا ضحكوا ضحكوا من قلوبهم وبملء افواههم .. وما كان أكثر ضحكهم ! »

**اثر التشجيع ولو كان ضئيلا ... :** لقد كان الرواد الاولون في فن القصة المصرية شجعانا أي شجعان ..! لقد كانت التربة جديدة على هذا الفن القصصي ، وكان الاستعداد عند القراء شيئا ضئيلا جدا ، وكانت الشخصيات والمعالم والصفات الاوروبية قد طغت على القصة اول امرها ، وكانت القصة مترجمة اولا ومنقولة نقلا لا يمت الى ارض مصر العربية بسبب *.. فالطبائع أفرنجية ، التقاليد أوروبية ، والاسماء أجنبية ، والجو كله خانق يوحي اليك بانك تقرأ لناس غير ناسك .. فلما جاء الرواد أرادوا أن يظهروا الملامح المصرية ، وأن يعبروا عن الشخصية المصرية ، وأن يصوروا السلوك المحلي لا السلوك الاجنبي . وكثيرا ما تقوم العقبات في سبيل الرواد ومن يجيء بعدهم من حملة الرسالة . وهي عقبات يكاد يعيا أمامها أصحاب العزائم ، ويكادون تفتر هممهم،ويكادون يقذفون بالاقلام والاوراق ما دامت لا تحقق لهمهدفها ولا تبلغهم من مأرب ... وكثيرا ما نجد الرائد من هؤلاء وقد سدت عليه المسالك ، وضاقت الدنيا في وجهه ، ويئس يأسا بليغا من مقدرته على المضي في رسالته ، فلجأ الى الصمت - وهو أفضل السبل - واستعاذ بالترك والهجران ... وقد بلي محمود طاهر لاشين بمثل هذه التجربة المرة ومر بها ، فلما لم يجد جدوى لفنه ، ولا استجابة لدعوته ترك الكتابة ، وهجر التأليف ، وصبر على الصمت عن تأليف القصص عشر سنوات كاملة ، ويصور لنا الدكتور حسين فوزي هذه الحالة الطارئة على طاهر لاشين ، وكيف احياها التشجيع الضئيل قائلا « اما كيف عاد طاهر لاشين الى الكتابة - وأرجو ان تكون عودته اليوم لا تردد فيها ولا تبلبل - فهذه حكاية أخرى يتمثل فيها اثر التشجيع مهما كان ضئيلا . اطلع هذا القصصي الذي نسي نفسه ونسيه الناس على رسالة أدبية صدرت منذ عام ، قدم لها صاحبها ببحث عن القصة العربية الحديثة ، وقد أشار فيها الى طاهر لاشين اشارة طيبة لا يمكن ان يعرف أثرها في هذا الاخير الا من لاحظ كيف تكفي قطرات من الماء احيانا لتعيد الحياة الى نبات نكس راسه ذبولا . فعسى ان يتأمل قراء هذا الكتاب ، من أهل الغيرة على الادب ومستقبله في مصر قصة تلك العودة في بساطتها فيحفظوا للعربية الحديثة كاتبا لا يعرف الغرور ، ويكره الادعاء ، وينصفوا هذه القدرة على الحكاية والتصوير ، وذلك التفرد في الاسلوب ... »

**بين اليأس والامل :** حين كتب محمود طاهر لاشين « سخرية الناي » وأصدرها للمرة الاولى سنة ١٩٢٦ كان يعمل في ميدان يشاركه فيه جماعة من النابهين العاملين على انهاض القصة العربية ورفع لواء الرواية المصرية العربية ، حتى تكون ملحوظة المكان ، عالية القدر بين الاداب العالمية . ولا شك ان الغيرة والوطنية وحب العروبة كان يدفع هؤلاء القوم الى ان يبنوا للفن القصصي في مصر العربية صرحا لا يدانى ، وان يبلغوا به - على حداثة العهد - حدا يقارب ما بلغه الاجانب فيه ، فان الخطوات في مثل هذه الحالة يجب أن تكون جبارة عملاقة حتى يدرك السائرون ما فاتهم على الدرب الطويل ... وقد كان الواحد من هؤلاء العاملين يعمل بسروروثقة وانشراح واقبال على العمل ثقة منه انه يشارك في بناء نهضة ، ويسهم في اقامة صرح ... وقد عبر محمود طاهر لاشين عن سروره بذلك العمل الادبي قائلا « ومما يضاعف سروري اني أعمل الى جانب طائفة صالحة من خيرة الادباء المستنيرين ، أخص بالذكر منهم : الدكتور حسين هيكل ، ومحمود تيمور ، والدكتور حسين فوزي ، وحسن محمود ، وابراهيم المصري ، وسعيد عبده .. فأولئك هم الذين بكروا في بذل جهودهم ، لاقتحام الطريق الذي يؤدي بالادب العربي الى مكانته ، التي يجب أن تكون له بين الاداب العالمية .. »

بمثل هذه الروح التفاؤلية بدأ طاهر لاشين التقديم لاول انتاجه في القصة القصيرة ، وبعد ثلاث سنوات أصدر مجموعته الثانية « يحكى أن » . وقد كان ممكنا أن يستمر لاشين على الدرب ، وان يواصل السير ، ولكن يظهر أن العقبات التي صادفته كانت أكثر من احتمال صبره ، فلجأ الى الصمت عشر سنوات ، الى ان وجد من الناس من يذكره بكلمة طيبة في معرض الحديث عن نشأة القصة العربية ، وكانت الكلمة الطيبة وجيزة ، الا انها جاءت - كما يقول الدكتور حسين فوزي - كقطرات الماء حين ترد الحياة الى نبات نكس الذبول رأسه ... »

**اللغة العامية وراء كل انتاج .... :** عجيب أمر هذه العامية التي كان لسلطانها - وهي لغة حديث وتخاطب - وقع على نفوس بعض المؤلفين حين يكتبون ويسطرون على الورق . لقد تسربت من العامية الفاظ وعبارات كثيرة الى كتب بعض المؤلفين في التاريخ العام ، كما فعل « ابن أياس » المؤرخ في تاريخه ، فهناك مئات ومئات من الالفاظ والمصطلحات العامية التي دونها ولم يجد حرجا في استعمالها ... ولقد جاراه بعد ذلك مؤرخ مصري ، اخر هو « الجبرتي » صاحب التاريخ المشهور ومدون حوادث الحملة الفرنسية على مصر ، وحوادث

محمد علي .ولقد كان لمثل هؤلاء المؤرخين مندوحة عن الهبوط الى العامية ما داموا لا يسجلون حوارا ، ولا يدونون محادثة ، ولكنهم يسردون الحوادث سردا بلسانهم ،و يروونها باسلوبهم . أما القصاصون فقد أثاروا مشكلة اللغة في أثناء لجوئهم الى الحوار في قصصهم . فمنهم من آثر أن يكون الحوار طبيعيا بلغة قائله لا بلغة القصاص .

فلجأ محمود طاهر حقي الى الحوار بالعامية في قصته « عذراء دنشواي » ولكن النقاد لم يعجبهم منه هذا الموقف ، فرد عليهم قائلا « ولقد كان من بينهم ـ يعني من القراء ـ من تفضل فانتقد لغة الرواية ، لانه مضيع ـ على زعمه ـ للغة القرآن الشريف ، وغاب عن حضراتهم اني تعمدت الكتابة باللغة العامية : العامية الريفية ، لتكون أوقع في النفس ، وعبارة طبق الاصل لمحادثة سكان القرى ... »

وهكذا نرى ان عامية الحوار في مطالع القرن العشرين لم تكن عن ضعف أو جهل بأساليب الفصاح ، ولكنها كانت شيئا متعمدا ، لتكون صورة حية للغة الحديث بين العوام وأهل الريف ، ولتكون أصدق اداء من لغة مفتعلة لم ينطق بها فلاح ولا صانع ولا طباخ ولا غيرهم من ذوي الشخصيات العامية في القصة... ولجأ الدكتور محمد حسين هيكل الى بعض الحوار أو بعض الالفاظ العامية في حوار قصة « زينب » .

وزاد محمد تيمور ـ رحمه الله ـ حين جعل لغة الحوار في المسرحيات عامية صرفا ، استجابة لمطالب المسرح من جهة ، ومطابقة للصدق في الاداء من جهة أخرى .... فلما جاء محمود طاهر لاشين سنة ١٩٢٦ ليدخل بعض الحوار العامي في مجموعة « سخرية الناي » ، وقف له المحافظون ، بل لم يملك المرحوم الدكتور منصور فهمي أن يقول له في المقدمة التي قدم بها هذه المجموعة « ولا يسعني في الختام الا ان امتدح اسلوبك العربي السهل الطلق ، لكني كنت أربأ بجماله ، عما وقف في سبيله المهد حجر عثرة من لغة العوام في بعض المحاورات... »

الدقة في تصوير الواقع ... : من مزايا القصاص البارع انه يصف لك ما رآه وصفا مبنيا على الرؤية والمعاينة ، لا على الاستماع والذاكرة ، والقصاص هنا مثل الرحالة ، لا يجود وصفه الا اذا كان نتيجة معاينة وخبرة ورؤية . ويخيل اليك وأنت تستمع الى الرحالة الناقل لا الواصف وصف الشاهد ، انك تستمع الى شيء لا حياة فيه ، ولا حس ، ولا حركة . ان صور القصاص حين تكون وصفا حقيقيا لما رأته عيناه ، تكون اكثر تأثيرا في النفس ، وأقرب أدناء الى الواقع ، واكثر امانة في النقل . ولا شك أنك تعجب بوصف طاهر لاشين لصالة المحكمة الشرعية قائلا « كانت صالة المحكمة الشرعية في ذلك اليوم ، مثلها في كل يوم ... غاصة بزبائنها الكرام وغير الكرام ، بين شاك وشاكية ، وباك وباكية ... زوج ضاق ذرعا بامرأته ، وامرأة ضاقت ذرعا بزوجها ، ومطلقة تريد النفقة ، ومطلق يريد استرداد ولده ، وما الى ذلك من أشكال اشكالاتنا الزوجية ، والوان بلاوينا العائلية . والغالبية الساحقة من هذا الجمع الحاشد من حثالة القوم ، وأهل الطبقة الدنيا من سكان هذا البلد ، حيث الجهالة والحماقة ، وحيث تضاؤل سلطان العقل ، واستفحال أمر الشهوة ...» . أما وصفه « لبيت الطاعة » فهو صورة حية نابضة لمظهر من مظاهر سائدة حرص المصلحون على مكافحتها بما تحمله من عناد ، وتعنت ، وتعذيب بعيد عن الدين . اقرأه وهو يقول في تصوير بيت الطاعة الذي حكم على نعيمة بان تدخله ... « ودخلت نعيمة بيت الطاعة ، وانه لمنزل صغير حقير في احدى الحواري ... فيه غرفة متوسطة المساحة ، لها نافذتان تطلان على الحارة ، سمر شيشهما تسميرا ، فلهما اذن العذر كل العذر اذا لم يسمحا لرأس أن تطل منهما ، وليس لاحد عذر في ان يتهمهما بعدم اداء واجبهما من حيث ادخال النور والهواء .. ! وفي الغرفة سرير نص بوصة ، وفيها دولاب نص عمر ، على هذا أبسط الفراش ، وفي ذلك أبسط الملابس.. وعلى الحائط مرآة ما يزال باستطاعة الحقق المدقق ان يتبين فيها معارف وجهه ، وعلى الارض بساط ما يزال باستطاعة المرء أن يجد فيه مواضع لقدمه .. تلك هي غرفة التعسة ...! »

الواقعية وتصوير الكائن : لقد كان محمود طاهر لاشين من السابقين الى التخلص من النزعة الرومانسية الخيالية في القصة المصرية ، وهو في هذا يعد سائرا على الدرب الذي سار عليه طاهر حقي ، ومحمد تيمور ، وعيسى عبيد ، وشحاتة عبيد ، وحسين هيكل ...فلقد ضاق الناس بنزعة الخيال ، وخاصة فيما عربه المنفلوطي واستدر فيه من الدموع ما كان الزمن كفيلا بوقف تياره ... وأصبح تصوير الواقع كما هو غاية القصاص الحديث ...

**القاهرة** **محمد عبد الغني حسن**

•

## بحوث أدبية

تأليف عبد الصاحب شكر ـ دراسة ونقد ـ ١٦٠ صفحة ـ مطبعة المعارف ببغداد

تعود كثير من الكتاب والشعراء الوقوف طويلا على أبواب أصحاب المقدمات من أجل الحصول على أسطر يدبجها يراع النابغة الهمام والعبقري المقدام يسميها هو فاتحة ويطلق عليها غيره اسم مقدمة من باب التبرك أو المجاملة ومثل هؤلاء الكتاب كمثل من يتوكأ على عصا وهو يسير في درب شائك طويل بينما تعوزه الجراة ويخونه الاقدام للسير بمفرده في هذا الدرب ... ولله در الاوائل فقد وصلتنا كتبهم خالية من مقدمات أمثال هؤلاء الفرسان على تعاقب الايام والازمان .

على هذه القاعدة الرتيبة المبنية على أساس من المجاملة وحفظ اللقاء خرج الزميل عبد الصاحب شكر في كتابه بحوث أدبية كعادة من تأثر بهم ليقدمه بنفسه لثقته التامة بها ويضعه بين أيدي القراء توخيا للحق عندما يقال وان يكون بين الكتب الادبية لا أن يتوسطها كما يقول في مقدمته .

يضم الكتاب بين دفتيه دراسات لطائفة من الشعراء والكتاب من ذوي الشان في حياة الادب تبدأ بابي تمام وتنتهي بمصطفى صادق الرافعي الى جانب دراسات اخرى في الجمال خالق الغزل والشيب في منظار الادب والشعر الحر والمدح. ومن هذه الطائفة التي نحن بصددها : البحتري والمتنبي ودعبل وابن دريد وابن حزم والعقيلي من المتقدمين ومعروف الرصافي ومحمد رضا الشبيبي واحمد شوقي وحافظ ابراهيم وفوزي المعلوف ومصطفى جواد من العصر الحاضر .

ان أبحاث الكتاب استوفت العناصر اللازمة لا سيما البحث الذي يتعلق بابي تمام .. أما من ناحية عقيدة الشاعر فانني على خط مباين مع المؤلف فيما ذهب اليه من أن أبا تمام « كان تشيعه أمرا مشهورا » لمجرد قوله :

جعلت هواي الفاطميين زلفة ... الى خالقي ما دمت أو دام لي عمر

كان الشاعر متنقلا في ارجاء البلاد الواسعة يمدح هذا ويهجو ذاك على عادة أمثاله انذاك حتى استقر به المقام مديرا للبريد في الموصل مدة سنتين ثم وافاه الاجل فيها وعمره يناهز الاربعين وكان خلال هذه السنين في عداء مكشوف وسافر لدعبل بن علي الخزاعي الشاعر المعروف بتشيعه لال البيت عليهم السلام وتضحيته وملاقاته الصعاب من رجالات البلاط العباسي وهو صاحب القول المعروف : « لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك » ! لرايه الحر في مقارعة الخصوم واعتقاده بعدم أحقية الولاة بالحكم .

اعتقد ان المؤلف نفسه معجب بهذا الشاعر لان ذكره يدور في أبحاثه لنستمع الان الى قول المحقق الجليل الاستاذ عبد الصاحب الدجيلي : « ناقض دعبل أبا تمام وكان أبو تمام صديق علي بن الجهم المغالي بنصبه وعدائه لال البيت» ديوان دعبل تحقيق الدجيلي صحيفة ٧٦

لقد كان هذا التناقض ظاهرا على لسان كل منهما وكله موجود ومفصل في كتب الادب فليس من المعقول أن يكون أبو تمام متشيعا ما دام مستمرا في تناقضه هذا مع راس شعراء آل البيت في زمانه وان وجود بيت واحد من الشعر في ديوانه الكبير لا ينهض دليلا أو لا يقيم حجة على اثبات عقيدة الشاعر في وقت تتضارب فيه التيارات العقائدية والاغراض الشخصية والمصالح الفردية التي كانت سببا من أسباب تدهور الدولة العباسية فيما بعد . أما بصدد ما ذهب اليه بروكلمان في كتابه تاريخ الادب العربي وقوله في نصرانية أبي تمام فهذا قول يحتاج الى الادلة القاطعة لعدم وجود الاسانيد التاريخية الدامغة التي تؤيد هذا الزعم .

والتقي مع المؤلف بل أصافحه بحرارة حول دراسته للشعر الحر .. هذا الهذيان المحموم الذي ما زال جاثما على طاولة التشريح حيث تتناوله المباضع لتعمل به ما تشاء دون ان يحس أو يتالم كانه غريب عن تراثنا الذي يتعطر بالخلق والابداع .

لقد بذل المؤلف جهودا مشكورة في اخراج كتابه بحوث أدبية دون ان يتلقى معونة او مساعدة من لجنة تتولى تعضيد النشر أو غيرها من اللجان واخترق الصمت الذي ران على المطابع التي لم تتعود الا على طبع الجرائد الاخبارية اليومية وبطاقات التهنئة والزفاف !

وختاما كان بامكان المؤلف الاستغناء عن بعض العبارات الثقيلة أمثال يوافيع قروم الادب ويرتع بين الوكس كما كان بالامكان مراجعة بعض الاغلاط المطبعية . وتحية للزميل الاستاذ عبد الصاحب شكر على هذا اللقاء الذي أتاحه لنا كتابه على صفحات الاديب القراء ومعذرة .

الكوت ـ العراق — كاظم محمد حسين

•

## قلوب الخالدين

تاليف ابراهيم المصري ـ مجموعة مقالات ـ ١٤٤ صفحة ـ سلسلة ( اقرأ ) ـ مطابع دار المعارف بالقاهرة

يتبلور الدور الكبير الذي قام به الاستاذ ابراهيم المصري في حياتنا الثقافية والادبية المعاصرة ، بريادته للقصة المصرية التحليلية ، واهتمامه بين قلة ضئيلة من كتابنا بدراسة عواطف المراة ، ومتابعته للنتاج الثقافي الاجنبي في صوره المختلفة . وكتابه الذي صدر أخيرا « قلوب الخالدين » يكاد يجمع هذه الاهتمامات جميعا ..

والمؤلف لا يقتصر على المعنى الضيق لكلمة قلوب ، فليس عمل القلب ان يكون عش غرام فحسب ، بل هو أيضا باعث كل نشاط انساني في العيش والكفاح والفن.وهذا ما عناه المصري .. ومن هنا أيضا كان اهداء كتابه هذا الى شبابنا ، فالشخوص العظيمة من الرجال والنساء التي يتناولها ، عاشتوأحبت وتعذبت وكانت في حبها وعذابها وكفاحها رمزا للبطولة وعنوان التضحية في سبيل الفكر والادب والفن « فالحياة المثلة كانت قبلتهم ، والسمو بها كان غايتهم ، وصدق العزيمة كان سلاحهم ، وارادة التفوق لانفسهم وللغير كانت مثلهم الاعلى . فمن هذه الامثلة الرائعة ذات التألق الابدي ، يستطيع شبابنا الطامح ان يقبس النور لعقله، والحياة لقلبه ، والخير لنفسه وللناس .»(ص ٥).

والشخوص السبعة عشر التي تناولها المؤلف هي : الروائي الروسي مكسيم جوركي ، والشاعر الروسي بوشكين ، والموسيقي المجري جيرار رالف ، والمصور الفرنسي ديلاكروا ، والشاعر النمسوي ليوبولدهالم ، والموسيقي الفرنسي جوستاف كرواسيه ، والشاعر الروسي فيدور ميرسكي ، والموسيقي الايطالي دونيتزيتي ، والشاعر المجري فردريك رالف ، والاديب الالماني موريس هارتمان ، والروائي النمساوي لوجوس دي زيلاي ، والروائي الفرنسي بلزاك ، والاديبة الفرنسية فرنسواز بارتو ، والمجاهدة التشيكوسلوفاكية برتا سوتنر ، والشاعرة الفنلندية ماريا بوجارت ، والاديبة الالمانية المجاهدة هيلين لانج ، والشاعرة اليابانية ايزومي شيكيبو .

من خلال نظرة شاعرنا القديم الذي كان يؤمن بأن ما الحب الا للحبيب الاول ، يختار ابراهيم المصري زاويته في الحديث عن عدد غير قليل من الشخصيات التي انتقاها ، مثل ليوبلدهالم ، وجوستافكرواسيه ، ولوجوس دي زيلاي ، وفردريك رالف ، والاخير شاعر مجري ترك ديوانا واحدا ، انتهت حياته بماساة كان نتاجها خمس عشرة سنة عقوبة في السجن وهذا الديوان ! فقد كان فردريك شاعرا قرويا أحب ريفية حسناء أعطت قلبها لشاب اخر خدعها ، فعرضت على فردريك ان يثار لها منه على أن تتزوجه . وجن شاعرنا فرحا ووعدها ان يتبنى طفلها أيضا ، وعندما قتل الغريم وجاء يعلنها بالنبأ ، وجدها قد قتلت وليدها ! واكثر من ذلك تنكرت لحبه ، فالحقها بعشيقها وابنها !

ولقد حاول الكاتب الكبير الا يكرر نموذج واحد ، ولذلك جاءت فصوله معرضا رائعا بارعا لنماذج بشرية يتسم كل منها بلون خاص ، مثل شخصية برتا سوتنر ، وهي فتاة تشيكوسلوفاكية ـ ولدت فيمدينة براج عام ١٨٤٣ ـ مرهفة الحس ، مشبوبة التصور ، عميقة الشعور بآلام الغير . انتهى بها حبها لمطالعة كتب التاريخ الى بغض الحرب والثورة على فكرتها الملعونة ، فلقد هالها الوقود الانساني والحضاري الهائل الذي تضحي به البشرية في هذا السبيل . وأشفقت على الانسان ومصيره في كل مكان ، فتعذبت عذابا هائلا حتى لم تكن تستطيع ان تذوق طعم النوم احيانا كثيرة . وكانت برتا تحب ضابطا فيالحرس الامبراطوري النمسوي ، يؤمن بأن الحرب غريزة انسانية وضرورة حضارية ووسيلة استعمارية حتمية لمزيد من الاستحواذ الاوروبي على أراض جديدة . فعندما وجد فتاته على هذا النحو قطع كل صلة له بها وخطب فتاة أخرى . ثم تتابع الاحداث ، تنشر برتا كتابها الاولالمعروف « ضعوا السلاح » فيحدث دويا منقطع النظير في دوائر الساسة وأهل الفكر ، ويسعى اليها عدد كبير من زعماء الاحزاب الاشتراكية ، ويتصل بها الفرد نوبل صاحب الجوائز العالمية . وتصبح الفتاة أولى امرأة في اوروبا حملت لواء السلام . هنا يعود اليها حبيبها الغادر الكونت كنسكي معتذرا نادما ، ولكي تستوثق من حبه وايمانه برسالتها تطلب اليه ان يضع ثروتهالطائلة كلها في خدمة مبادئها، ويفعل، ويتزوجان.. ولكن الرجل بعد قليل يتمرد على وضعه ويسوءه الا تتقوقع برتا التي حصلت على جائزة نوبل للسلام في هذه الاثناء ـ عام ١٩٠٥ ـ بين جدران بيتها ، فيدب النزاع بينهما الذي يقضي الى الطلاق . وهال المراة ان تطعن في قلبها وان تظفر بالمجد ثم تفقد الحب . فضل عقلها وتشوش ذهنها ، وظلت أشهر طويلة تعيش في شبه يقظة مخيفة بعد حلم رائع .. لكنها استجمعت ارادتها ونفضت عنها ضعفها وعادت الى حمل رسالتها ، وكان أول ما فعلته مباركة القران الجديد لزوجها الغادر ، ثم مضت غير نادمة او آسفة أو متحسرة تستطرد جهادها بمفردها وتحمل راية الحق والعدل والحرية والسلام .

وفي هذا المجال ايضا نجد قصة موريس هاريمان ، وهو احد كبار ادباء المانيا في القرن التاسع عشر ، الذي كان يضع العقل فوق القلب والانانية فوق الايثار والقوة فوق العدل . فحرم زوجته من

ابنهما لان اهتمامها بوليدها مقتطع من حقه في حب امرأته كلـه ! وتثور الام وتهرب بطفلها وسط الرياح والامطار في احدى الليالي ، وعندما يمرض الطفل ويموت يدرك الاديب مقدار جنايته وانه لم يكن ابدا انسانا ، ويبدأ تحوله عن فلسفته القاسية ..

ومن أجمل فصول الكتاب « في مهب النار » الذي يتناول حادثة كان لها اكبر الاثر في توجيه حياة الموسيقار المجري الشعبي جيرار سباستيان رالف . فرغم انه اقترن بامرأة تركت زوجها الثري وابنتهما لتلحق به ، الا انه اكتشف بعد الزواج انانيتها وغيرتها من فنه الذي ينافسها في قلبه . فتكالبت عليه وحاصرته بين ذراعيها واغرقته في حبها وهو يحاول عبثا ان يقاوم . حتى مرت ثلاث سنوات كاملات توقف فيها انتاجه تماما ! ثم لحق بصراعه عامل جديد ، هو جراسيا ابنة زوجته . لقد وفدت على المنزل لسفر والدها الى خارج البلاد ، ومن اليوم الاول أحس ان وجود العذراء الصغيرة الرقيقة أمده بقوة جديدة . ونشأ بين الاثنين مودة وتعاطف وحب .. لا حب الذكر والانثى ، بل حب الصديقين المتوادين . وهكذا تفجر ينبوع الفن مرة اخرى في اعماقه وأخذ يؤلف من جديد ، ولكن امرأته لم تفهم واشتدت بها الغيرة وعولت على ان تحرق مسودة انتاجه الجديد ، وهددت كل من يمنعها باطلاق الرصاص عليه ، وتقدمت الابنة من أمها تحاول انقاذ المسودة من نار المدفأة . ولكن الام الهائجة لا تعبأ وتطلق المسدس على فلذة كبدها ! ويلعب الحظ دورا كبيرا فلا تصاب الفتاة في مقتل ، وتثوب الزوجة الى رشدها ، وتستمع الى نصيحة ابنتها في تغيير اسلوب علاقتها بالزوج الفنان !

ويعرض لنا المؤلف من خلال غرام عميق لمكسيم جوركي ، ابعاد تجربة قاسية مرت به في شبابه فحولت تفكيره وجهة اخرى مختلفة تماما تأثر بها فنه واتسم منهج ادبه . ففي مطلع حياته كان واقعا تحت سيطرة عالمي تولستوي ونيتشه معا ، كان اقرب بطبيعته الى الاول وبطموح شبابه الثائر الى الثاني . وتمت الغلبة لتعاليم نيتشه بما تثيره من عبادة القوة والاستعلاء . وكانت الفتاة ابنة قروي تقي ، مرهفة الحس رقيقة الشعور بريئة العواطف ، احبته كما احبها . وامتد سلطان تعاليم الفيلسوف الالماني الى هذا الغرام ايضا ، بل لعل هذه التعاليم سعت اليه متعمدة تريد ان تبلو حقيقة ايمان جوركي بها . وهكذا تحول اسلوب جوركي في الاستحواذ على ليزا سوكولوف من مجرد احتلال قلبها الى صبها في قالب الافكار النيتشية ! فعلمها كيف يقسو قلبها على الغير وتسخر من الضعفاء وتزدري الفلاحين وترفع على الفقراء ، وتحت تأثير العشيق وارضاء الحبيب تغيرت الفتاة . وعندما تم هذا التحول وتجسد النموذج ، استهول جوركي ما صنع واستبشع ما فعل . فقد اصبحت ليزا مخلوقا قاسيا صارما جافا لا تكاد تنتمي الى الجنس الناعم . فحاول ان يصلح ما افسده ، ولكن كل شيء كان قد انتهى ، ورفضت ليزا ان تكون العوبة في يد صاحبها ، يوحي اليها ويشير عليها اليوم بما ينقضه في الغد . وعندما فشلت محاولته هرب منها ، فاضطرت ان تدخل الدير يائسة .

واتسم اسلوب ابراهيم المصري كالعهد به دائما بالتحليل العميق والتعبير الدقيق وتجسيد الملامح وابرازها بصورة شديدة الوضوح . ولعل اروع اللمسات الوضيئة ، تناوله لشخصية الرسام العبقري الرومانتيكي ديلاكروا ، الذي احب في مطلع شبابه ــ بعد طول بحث ــ ماري لويز بوليه ، وهي مدرسة قروية ساحرة وجد فيها مثله الاعلى في حواء .. امرأة سامية القلب والروح ، جميلة ونقية ، ذكية وطاهرة ، مثقفة وطيبة ، تحب الشعب كما يحبه هو ، وتبذل في سبيل كل تاعس محروم خلاصة فكرها وعصارة قلبها . ولكن الفتاة احبته روحا لا جسدا ولذلك عندما طالبها بالزواج ، رفضت . ويصدم الرسام الناشىء صدمة بعيدة ، ويسوء ظنه في النساء جميعا ويتهمهن بالخيانة ، ولا يتقلص حزنه ابدا . فالجرح غائر لا يندمل حتى وهو يستمتع بالشهرة العريضة التي واتته بعد ذلك ، فروحه تهفو دائما الى المثال الذي حرم منه . وتشاء المصادفات ان يلتقي به على صورة أكمل وابرع في شخصية اخرى هي .. جوزفين دي لافاليت ، التي احب فيها صاحبته القديمة . ومن هنا نجمت ماساته التي هددت حياته . ولقد استطاع المؤلف بدقة رائعة ان يعبر عن تمزق ديلا كروا بين المرأتين ، وان يحدد انتماء الرسام الى اي من الغرامين .. « أحبها لذاتها واحبها ليقظة ماضيه البعيد فيها . ولكن ذاتها المستقلة لم تكن لتأسره بقدر ما كان يأسره ذلك الماضي البغيض العزيز الممثل فيها . وساقته ذكرى ماري لويز الى الاتصال بجوزفين ، فاحبته المرأة وهي لا تدري انه انما يحب فيها روح شبابه وصورة ماضيه ، ورغبته الخفية في الثار لنفسه من ذلك الماضي الذي خدعه ، وغرر به ، وسامه في مطلع حياته شر ضروب العذاب ... على انه مع ذلك احب جوزفين . احبها بقلبه وابغضها بخياله . أحبها بحاضره وابغضها بماضيه . احبها بطيبة الفنان ولكنه أبغضها ، وعذبها ، ونكل بها بقسوة الانسان المتكبر الاناني الحقود الموتور الذي يزين له حقده ان يثار من خيال تقلص ومات ، في مخلوق بريء مسكين يختلج حبا وأملا وتطلعا الى الحياة !» ( ص ٣٧ ) .

وتتميز ( قلوب الخالدين ) بسمات معينة بارزة ، السمة الاولى ، ان الحب ليس نزوة طارئة تنتهي بالاستمتاع الرخيص بها ، بل هو حدث ضخم غير عادي يترك اثاره العميقة الباقية في نفس صاحبها ، ويفتح صفحة جديدة في حياته ايضا . ويعرض المؤلف الوانا من الحب الصادق القيم الذي لا تشوبه شائبة من تردد أو ضعف ، ويناضل بقوة وتصميم كل العوامل التي تريد افساده . كما في الفصول التي تناولت لمحات من حيوات ، انوريه دي بلزاك ، وفيدور ميرسكي ، وفرنسواز دي موتفيل ، وهيلين لانج ، رغم اختلاف شخصيات اصحابها كل عن الاخرى .

والتدين عنصر رئيسي في كثير من شخوص مؤلف ابراهيم المصري ، وصفة بارزة فيها ، ينم عنه سلوكها ويعكسه مواقفها . وهو احيانا يكون أثرا من آثار الوراثة كما في « التجربة الفاصلة » عن حياة جوركي ، فليزا ابنة رجل تقي ، وهذه التقوى كانت احدى العوامل المساعدة في دخولها الدير في النهاية بعد فشلها في حب جوركي . والتدين لا يقتصر على لون من الناس دون آخر ، ويرفض ان يتحدد في صورة تقليدية كان يلتصق مثلا بأبناء البيوتات او ما يطلق عليهم الناس المحترمين ! فالتدين اذن تبعا لاحوال الناس وظروفهم الكثيرة التعدد والعظيمة الاختلاف وخاصة في الغرب الذي يفرق بين الدين والحياة ، فيعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، لا يدمغ مسلك صاحبه الخارجي بل يترسب احيانا كثيرة في اعماقه وداخله . كما بالنسبة الى شخصية روزا ايفانوفنا بنت الليل التي احبت بوشكين !

وتتبع السمة الثالثة في هذه الفصول من ان كاتبنا الكبير لا يزال يتابع طريقه القديم ــ كنتيجة حتمية لاتصاله الدائم المستمر بالثقافة الاجنبية ــ الذي لم يتحول عنه كما فعل غيره من ابناء جيله ، في تقديم الجديد والتعريف بالشخصيات الادبية والفنية العالية غير المعروفة للسواد الاعظم من القراء المصريين . وهكذا يضم « قلوب الخالدين » الكثير من هذه الشخصيات في مختلف مجالات النشاط الفكري والفني .

هذه هي الخطوط العامة لكتاب ابراهيم المصري ، ولا شك ان القارىء قد قضى وقتا طيبا في صحبة فنانه الكبير .

المنصورة ــ ج٠ع٠م — علاء الدين وحيد

مجهرية هي الاشتباكات . وعندما تثار الخلية تنتشر شحنة كهربائية فيها وفي النهاية الاسطوانية . وهي تصل الى الاشتباك حيث تضعف . وتندفع من مكانها في النهاية الاسطوانية شحنة كريات صغيرة مع مادة خاصة هي الوسيط . وتنفجر الكريات ويصل الوسيط الى غشاء الخلية الثانية الاشتباكي و « ينزقبه » ( يزيل استقطابه ) اي يزيل شحنته الكهربائية . وحينذاك تندفع موجة الاثارة الى ابعد . وتشكل الوسيطات ادرينالين ونورادرينالين ودوفامين وسيروتونين ) من الناحية الكيميائية ما يسمى بالامينات المولدة للحياة . وهذه المواد تصون ارتباط خلايا الدماغ فيما بينها وتضبط نشاط الجسم ولا سيما الغدد الصماء فيه .

وخلال حالات الانفعال او القلق او الاضطراب او النزوع الى الاعتداء يزداد انطلاق الوسيطات في الدماغ . فخلال العمل الفكري الكثيف وكذلك خلال الاضطراب يتصاعد الادرينالين ، مثلا . ويتصاعد النورادرينالين خلال الاثارة والغضب والنزعة الى الاعتداء . واما الدوفامين فيحفز النشاط الحركي كما وان السيروتونين ولا سيما النورادرينالين « يجددان » نشاط جميع قطاعات الدماغ . ان كل عمل الدماغ ، البالغ التعقيد ، من ابسط الافعال المنعكسة المشروطة حتى الفكر المجرد ، يرتبط بتصاعد الوسيطات في اشتباكات العصبونات .

والخمائر هي التي تسوس تركيب الوسيطات وتحليلها في الدماغ . واهم هذه الخمائر هي الـ « مونو امينوكسيداز » . وبامكاننا بتأثيرنا في هذه الخميرة ان نسوي كمية الامينات في الدماغ وان نوجه بالتالي ، الى حد ما ، نشاط الانسان ، النفسي .

وركب الصيدليون ، بناء على طلب اطباء الامراض العقلية ، مواد تضعف مفعول الـ « مونوامينوكسيداز » ، الى حد كبير . واحدى هذه المواد هو الـ « ايبرازيد » ، انه يستخدم في عيادات الامراض العقلية لمكافحة الانهيار العصبي . معلوم ان هذا المرض يتجلى بانهيار عام ، بعدم مبالاة ، اذ تنخفض الحركية ويتباطأ النطق . وهذا كله مرده الى انخفاض الوسيطات في الدماغ . وخلال ادخال الايبرازيد او مخمل اخر من المخملات المونوامينوكسيدازية يتوقف انحلال الامينات ـ الوسيطات ويشتد النشاط النفسي ويتحسن المزاج ويتسارع النطق والحركات . ويستعيد المريض الثقة بشفائه وبقواه .

ان استخدام المخملات احدث ثورة في معالجة النفوز ( النفوز هو مرض عقلي يعرف بالبشيكوز في الفرنسية ) الانهياري وهو يستخدم الان حتى في القضاء على الام القلب خلال الذبحة الصدرية وفي تخفيض ضغط الدم . فهذه الظاهرات ترتبط ايضا بانتقال الشحنات في الاشتباكات التي تخضع لتمركز الوسيطات .

واثبتت فلاديميرغوركين في معهد الكيمياء البيولوجية والطبية لدى اكاديمية العلوم السوفياتية ان الـ « مونوامينوكسيداز » هو خليط من الخمائر المتجازئة ( الجسم المتجازي ) هو الجسم التي تتألف جزيئاته من عدد واحد من الذرات ولكن ترتيبها يختلف وهو الـ « ايزومير » بالفرنسية ) المتشابهة الخصائص . وتتصرف كل خميرة منها الى اتلاف وسيط . واذا كان هناك عدة خمائر صار من المحتمل امكان ايجاد مخملات تحاصر هذه الخميرة او تلك محاصرة نوعية « انتقائية » ان ذلك يمكن من تسوية مستوى هذا الامين ـ الوسيط او ذاك دون مساس الامينات ـ الوسيطات الاخرى . واظهرت اعمال المختبر ان بعض المركبات التركيبية والطبيعية تحوز تأثيرا انتقائيا بحثا في اجزاء الـ «مونوامينوكسيداز» . فالـ « ارمين » يكبح الخميرة التي تتلف الـ « سيروتونين » . وابتلاعه يحدث عند الانسان الاضطرابات القصيرة الاجل ذاتها التي يحدثها فائض الـ « سيروتونين » . وتجرب في المختبر الان مئات المواد التي ، بتغييرها مستوى الوسيط تغير على هذا النحو حالة المريض النفسية .

ووضعت طريقة بسيطة وفعالة لتطهير الـ «مونوامينوكسيداز» تطهيرا تلوينيا وحصل على مستحضرات نقية جدا ، وقدم تحليل المستحضر المطهر معلومات هامة لفهم الية مفعول الـ « مونوامينوكسيداز » ، وتؤمل النتائج بان يحصل طبيب الامراض العقلية قريبا على وسائل جديدة لمكافحة الامراض العقلية .

**ليونيد كليشتورين**

## في كلمات ...

• ورد في مقال نشره الدكتور ج. ليندنر في مجلة كوسموس الالمانية العلمية بانه استدل من اختباراته الطويلة على ان مرض السداد القلبي لا يعود الى طريق التغذية وحدها فقط ، بل تقوم هناك عوامل اخرى اضافية لذلك ، كالمرح والسرور والارتياح وتوازن النفس الداخلي الى حد ما ، فيعمل ذلك على الوقاية من خطر الاصابة بالسداد القلبي . وقد قام المركز الطبي في اوكلاهوما في الولايات المتحدة باختبار أحوال الاصابة بالسداد القلبي في أربع مستعمرات من مستعمرات السكن ، كان يسكن احداها مهاجرون سابقون من المانيا ، واخرى مهاجرون ايطاليون ، وكان سكان المستعمرتين الثالثة والرابعة مختلطي الاجناس . وقد تبين له بان الاصابات بالسداد القلبي كانت تقل في مستعمرات السكن التي يسكنها المهاجرون الايطاليون بالرغم من انهم ولدوا في الولايات المتحدة واصبحوا من ابنائها وتعودوا على أحوال المعيشة فيها . ويعزى السبب هنا الى مرح الايطاليين أكثر من غيرهم وعدم ترك الهموم تتسرب الى نفوسهم.

• حذرت ادارة الادوية الامريكية النساء الحوامل او اللواتي يتوقعن الحمل من تعاطي ثلاثة ادوية تؤدي الى تشويه الجنين مثل الثاليدوميد ، وهذه الادوية هي ، ميكليزين وسيكليزين وكلورسيكليزين . وهي ادوية يوصف بعضها لحالات الغثيان والدوار وبعضها للزكام والبعض الاخر لامراض الحساسية .

• توصل العلماء العرب بالمركز القومي للبحوث بالقاهرة الى تخليق مركبات دوائية جديدة من المخلفات الزراعية أثبتت التجارب ان لها تأثيرا فعالا في وقف نمو الخلايا السرطانية . وقد ارسلت عينات من هذه المواد الى المعهد القومي الامريكي للسرطان أجريت عليها تجارب استمرت ثلاثة شهور واكدت نجاح هذه المواد التي توصل اليها الدكتور نزيه لطيف رئيس وحدة الكيمياء التخليقية بالمركز القومي للبحوث . وسيتم انتاج كمية اخرى من هذه المواد الدوائية تستخدم على حيوانات التجارب تمهيدا لتجربتها على الانسان في حالة نجاحهاتماما.

• ادعى محلل كيماوي في انجلترا يدعى د.س. سبولدنغ ان شريحة من اللحم المشوي تحتوي على ما تحتوي عليه ٧٠٠ سيجارة من جراثيم السرطان . وقال المستر سبولدنغ لجمعية الصحة الملكية البريطانية ان الاطعمة المدخنة تحتوي بصورة دائمة تقريبا على اثر من مادة بنزبيرين التي تؤدي الى السرطان . وان ارتفاع نسبة الاصابات بالسرطان في ايسلندا ربما عاد الى هذا السبب .

• قالت الدكتورة روزاموند فالينغز في مقال نشرته المجلة الطبية البريطانية ان النساء اللواتي يتناولن حبوب منع الحمل سيسقطن فريسة الصلع . وقالت انها لاحظت ثلاث حالات يتساقط فيها شعر المرأة التي تتناول حبوب منع الحمل . وانه لم يكن قد مضى وقت طويل على كل حال على بدء هؤلاء النساء تناول الحبوب .




## حــــول تكريـــم البيـــر أديـــب

لعلك اذا اردت التفكير في وجوه الخير ، ان تفكر بقيم واسمـــــاء متعددة : حب الناس والوطن والانسانية ، حب الفن ، وخدمة الادب، الثبات والدأب ، وخدمة القيم . الاخلاص للحقيقة الجسارة على وهب العمر كله للادب ، أي للناس ، لتقدم الناس . لكنك تستطيع ان تجد كلمة واحدة ، اسما واحدا ، يجمل كل هذه الوجوه الخيرة التـــي ذكرت ، هناك اسم محبوب من جملة اسماء ، يجمعها كلها في عدسته المضيئة الحارة وهو : البير اديب .

ربما ساجد من يقول لي : طبيعي ان تحبذ تكريم هذا الرجل . فهو احد اساتذتك . وقد كان احد الرواد الاوائل لكل ما اكتشفته واحببته في صباك ، من جميل ، ومهم ، وباق : حب الشعب ، وحب العروبة، ولبنان ، لبنان ــ الثقافة والشعب ، وحب الفن والادب وغناهمــا الروحي . والحقيقة ان البير اديب كان مع عمر فاخوري ، وعبدالله العلايلي ونقولا فياض ، والياس ابو شبكة ، وغيرهم من رجال الادب المرموقين ، مشرقين من منبر « الاديب » ، منــذ شهورها الاولـــى ، يضيئون في الاذواق والنفوس كل امكانات الكلمة ــ المشعل ، الكلمة ــ المعول ، الكلمة ــ الصوت المنادي ، الكلمة ــ البقاء .

حقا لقد ابتهجت لتلك الدعوة الكريمة لانصاف البير اديب .ابتهجت لانه احد اساتذتي المربين . لكن هناك في لبنان ، وفي كل قطر عربي عشرات ، بل مئات ، وربما الالوف أمثالي ، من المثقفين والادبــاء والناس العاديين ممن يستجيبون لداعي الوفاء ويقفون ولا شك مثل موقفي ، اذ ان لالبير اديب ايادي لا تحصى علــى الثقافة العربيــة الحاضرة . وقد كانت « الاديب » ولا تزال مشتلا لكثير مما نرى من ادواح الادب والفن في دنيا العرب ، واغراسه الشابة . فلا عجب اذا تجاوب كثيرون مع الدعوة لتكريم هذا الانسان المخلص لكرامة الناس ، المثابر على اعطائهم ، من جهده ودمه وربما من غذاء عائلته ، قيــم الادب ومجــالات الابــداع .

هذا رجل ضحى باشياء كثيرة . بامكانات المناصب والثروة والجــاه الدنيوي السريع . وصرف الاعتبار عن مواصفات وتساهلات ربما كانت ستمسه في الصميم كرجل شهم ، لكنها كانت سترفعه ، كما رفعت سواه ، كثيرين سواه ، الى مراتب الثروة والنفوذ والجاه ، ممــن تنازلوا امام سلاطين المال وقياصرة الكذب والدجل ، لكن البير اديب كما يعلم الجميع ، فضل الاعتكاف في محراب الادب والخدمة ، فضل العمل الصامت ، الدائب ، المثابر المصابر ، من اجل مجلته «الاديب» التي بقي يمدها من دمائه واحشائه ، زيتا لمصباح الادب ، ومــن اجل كل ما نحبه ، ويحبه اللبنانيون والعرب،من قيم الادب والفن والاخلاق.

ان الاوساط الادبية التي تتنادى اليوم لتكريم البير اديب على عمله الطويل ، الدائب البطولي ، في اصدار مجلته « الاديب » انما تقـوم بعمل موفق ، يلاقي تأييد جميع المثقفين وجميع الفئات الوطنيــة والثقافية اللبنانية والعربية والمهجرية والاستشراقية ، وكل محــب للتفتح الانساني والاتصال بين الشعوب ، وكل متطلع الى استكمــال الحياة البشرية بعطاءات الاداب والفنون ، بخدمة « حياة الحياة » كما قال احد الناس معرفا الادب .

ولكن ليسمح لي بقول كلمة صريحة فــي الموضوع ، اساسا وتفصيلا ، فاذا كــان المقصود بالدعوة لتكريم الرجل ، وعملــه ، ومجلته ، هو مجرد كتابة مقالات الثنــاء والاطراء ، ونثر ورود المحبة والتقدير علـى حضن الاستاذ البير ــ وهو شيء جميل بحـد ذاته ، ولا خلاف عليه ــ الا ان المعـروف ان هذه المهمة قد تحققت في الواقع . اذ ان لالبير اديب ، في قلب كل مثقف لبناني وعربي ، وقلب كل مستشرق يحب تراث العرب ويعمل لجلاء قيمه وتعميق مدلولاته ، ان في قلب كل انسان يهتم بالادب ، أي بتقدم الانسان ، زاوية مضيئة لالبير اديب ، وامثال البير اديب .

المهم هو ان تتمكن الاوساط والشخصيات الداعية لتكريم الرجـل من تقديم خدمة حقيقية لرسالته التي ضحى وما زال يضحي بالغالي والرخيص من اجلها ، طوال خمسة وعشرين عاما ، والمهم هو ان تتمكن هذه الاوساط من لفت نظر الحكومة والدولة الى دعم مؤسسة كمجلـة « الاديب » ، ما زالت تصدر بجهود منشئها وحده ، تأكل من طعامه ، وتلبس من ثيابه وتصدر اول كل شهر نشيطة معافاة ، ومنشؤها مجهد متعب ، يعاني ما يعانيه من شظف العيش ، وعذابات الجهد الصامد .

وتجمع الاوساط الادبية في لبنان على ان انصاف مجلة « الاديب » وصاحبها ، بوسائل الانصاف التي تحسنها ، احيانا وزارات التربيـة والانباء والخارجية ، حينما تريد نحو بعض المجلات والمطبوعات ، سيكون في الوقت نفسه ، توثيقا لعلاقات ثقافية مع عدد لا يحصى من أدبــاء العرب ، في البلدان العربية الشقيقة ، وفي بلدان المهجر ، دأب صاحب مجلة « الاديب » على ممارسة هذا الواجب وحده تقريبا حتى الان ، لتوثيق الروابط الثقافية والادبية ، وكذلك مع الاوساط الاستشراقية التي تعرف مجلة الاديب كما تعرف نفسها واعمالها . وانا لا اطالــب للرجل ، من الدولة ، صدقة ولا « شوفة خاطر » بل أطالب بتحقيـق واجب وطني وثقافي هو من اول واجبات الحكومة ، ووزارة التربيـة و «الفنون الجميلة » في هذا البلد ، وهو دعم مؤسسة ثقافية واسعة الانتشار ، ولا خلاف على قيمتها او دورها الثقافي والادبي ، مؤسسة حملت اسم لبنان طوال ربع قرن ، الى جميع الاقطار ، وما تـزال .

لكن تكريم البير اديب ، التكريم الصحيح الواقعـي ، أي المــادي والمعنوي ، سيكون اعادة الثقة الى الناس بقيم الوفاء والوطنيــة والثقافة . هذه القيم التي ما عدنا نراها أحيانا الا كما ترى شمس الشتاء مضيئة بكآبة من وراء الغيوم .

جريدة « النداء » — محمد العيتاني

•

## منهاجي كمؤرخ في النظر الى العمل الادبي

التاريخ كالفلسفة ودراسة اللغة فرع من الادب . وبين التاريخ والادب البحت صلات كثيرة ولها التحليل وربط اجزاء الموضوع بعضها ببعض. فطالب الثانوي في اوروبا عند معالجة أي موضوع تاريخي او ادبي من موضوعات ( الانشاء ) ــ او ما يسمى بالافرنجية Composition ، يعمل على ايجاد وحدة متماسكة في الموضوع المؤلف من عناصر مختلفـة . وممارسة الكتابة في الموضوع على هذا الاساس لا توجد عندنا لا فــي المدارس الثانوية ، ولا في المدارس العالية والجامعات . ومن اجل ذلك لا تتوافر عندنا ثقافة تاريخية او فكرة صحيحة عن التاريخ والمنهـاج

التاريخي . وقل ان نرى لكبار مؤلفينا وكتابنا كتابا او بحثا ادبيا او تاريخيا متسق العناصر سليم البنيان يشد بعضه بعضا . وقد بدأنا نرى « الحبكة » او الوحدة في بعض القصائد والروايات ولكننا ما زلنا بعيدين عن الغاية .

وقد قرأت اخيرا فصلا لاحد افاضل كتابنا عنوانه « فن التراجم .. وأصدقاء سيد درويش » جاء فيه ان : الجدل الذي احتدم حول الحلقات الاذاعية المسلسلة التي قدمها الاستاذ زكريا الحجاوي عن سيد درويش ، وتلك المبادرة الصارخة من جانب الداعين الى المحافظة على ذكرى سيد درويش وتراثه ، يثيران قضية ارتباط الفنان بالحقائق الموضوعية لحياة الاشخاص ... فهناك بداهة فرق جوهري بين الفنان الذي يكتب ترجمة حياة لشخصيته ... والمؤرخ الباحث الذي يسجل وقائع حياة صاحبها .

ان الكاتب او ( الفنان ) يجب ان يكون ملما بحقائق الموضوع من الناحية التاريخية الماما تاما وبالمنهاج التاريخي في الوقت نفسه . ومما يؤسف له ان الكثيرين يجهلون ان للتاريخ ناحية فنية عظيمة تتجلى في كتابات المؤرخين الموهوبين ، وذلك في طريقة عرض الوقائع وسردها مع الايجاز والوضوح ، وتجاوب عناصر الموضوع تجاوب الانغام في قطعة موسيقية عالية . ومثل هذا التجاوب الرائع بمفاجآته قد يخيل اليك ان المؤرخ قد رتبه وصنفه وأدقه وأجله مقدما عند وضع ( تصميمه ) كما يصنع المهندس حين يرسم الجزئيات والكليات تفصيلا قبل الشروع في البناء . والواقع ان المؤرخ يتفق مع المهندس في دراسة الخطوط الاساسية لبنائه مقدما ولكنه يختلف عنه في وضع التفاصيل الدقيقة التي يأتي اكثرها عفوا من طريق الالهام اثناء التنفيذ، وهي تفاصيل لا حصر لها ، ولا يفطن اليها الا الخبير المتذوق .

فالتاريخ اذن علم وفن بمعالمه . ومن السهل ابراز عمل فني جليل في اطار تاريخي صحيح . ولشد ما ادهشنا كاتب المقال المشار اليه حين قال : « يروي اميل لودفيج صاحب الترجمات الشهيرة عن حياة نابليون الكثير من الجوانب الخافية والمواقف التي لا ذكر لها فيما عرف من تاريخه .. وكلها جوانب ومواقف قد يستحيل على اعظم المؤرخين اكتشافها مهما توافرت لهم الحقائق الثابتة عنها ، وهذا تماما هو الفرق بين عمل المؤرخ ومهمة المترجم ... ان الاخير هو المكتشف الوحيد لحقائق الشخصية التي يكتب عنها .»

ولو كانت عند كاتبنا ثقافة تاريخية لما كتب ما كتب . اني اعرف لودفيج شخصيا وقد زارني ، وقت ان كنت اعمل في جنيف في سنة ١٩٣٥ ، وأطلعني على تجارب كتاب له عن النيل بالالمانية . فصعقت من هول بعض اخطائه . كتب مثلا انه عند رحيل كرومر من مصر معزولا في سنة ١٩٠٨ كان الفلاحون يضرعون الى الله باكفهم ان يعيده اليهم ويتحسرون على أيامه .. قلت : ألم تسمع عن دنشواي ؟ قال : لا . قلت : ما مصادرك ؟ قال: كتاب كرومر « مصر الحديثة » وكتاب ملنر « انجلترا في مصر » .. فشرحت له عندئذ مأساة دنشواي ، فادخل تعديلا فيما كتب ، واصلح بعض اخطائه ، وأراد ان يشير الى ذلك في المقدمة فمنعته من ذلك بالطبع ، لان كل ما يهم المؤرخ هو ذكر الحقائق.

وفي استطاعة الروائي ان يكون عونا للمؤرخ عند تصوير الشخصيات والمجتمع في عصره كما فعل بلزاك مثلا ، او كما فعل الصحفي والقصاص ادمون آبو ، في كتاب « الفلاح » الذي صور فيه حالة الفلاح بدقة منزهة عن كل شبهة . ويتجلى فن آبو - لا في تزويق الحقائق - بل في اعطاء صورة حيةمن واقع الحياة ، لا نقصان فيها ولا زيادة ، تبدو ملامحها في ثنايا حوار رائع .

والمنهاج التاريخي او العلمي قد طبق في عمق وسعة في دراسة الشخصيات الادبية وتاريخ الادب في فرنسا منذ اوائل القرن التاسع عشر . فتوجد عن الشخصية الواحدة دراسات وابحاث عميقة ممتعة لا حصر لها . وقد ثبت مثلا ان لامرتين يخطىء في تاريخ بعض قصائده كما انه ينحرف عن الحقيقة احيانا فيوصف الاماكن التي عاش فيها او مر بها في رحلاته ، ووصف الحوادث التي يروي تفاصيلها . على اني اعترف انه قد بولغ في تطبيق المنهاج العلمي او التاريخي في الادب حتى ان احد كبار الادباء الفرنسيين وضع دراسة خاصة عن الصلة بين لامرتين ومدام شارل التي تعرف بها على شواطىء بحيرة «اكس ليبان»، وبادلها الحب ، ونظم فيها قصيدة « البحيرة » الشهيرة بعد موتها ، وهي مرثية من اكبر مراثي الحب والنعيم الزائل في تاريخ الادب الانساني . ومثل ذلك انكار وجود شكسبير . كل ذلك ينأى بنا عن جوهر المنهاج العلمي وجوهر الموضوع وينحدر بنا في تفاصيل ومسالك جانبية متشعبة يضل فيها اللب ويحار لانها لا تفضي الى طريق مهيع . واذا كانت هناك قلة من ابيات شكسبير مشكوك في نسبها فان هذا لا يمنع ان اعمال شكسبير في مجموعها تحمل طابع عبقريته وشخصيته .

وهذا امرؤ القيس ، قال لي صديقي العالم الاديب الدكتور طه حسين ذات مرة ، انه لا يوجد له الا ابيات قلائل صحيحة النسب وهي في معلقته . فكان ردي عليه انه له عشرات من القصائد ومئات من الابيات التي تدل على عبقرية جبارة . وقد نسبت للبحتري وفرجيل وهوميروس ابيات ليست لهم ولكن ذلك لا يغض من عبقريتهم مثقال ذرة . والواقع ان المنهاج العلمي الادبي لا ينصب فقط على تحقيق نسب الشعر ومناسباته فحسب ، ولكنه ينصب ايضا ، وقبل كل شيء ، على دراسة شخصية الشاعر من شعره ، وادمان النظر في ذلك الشعر والتعمق في دراسته . ولكن ذلك الادمان او التعمق ، ان لم تسانده الموهبة والقدرة على التذوق ، فلا جدوى منه .

وقد كنت شغوفا بقرض الشعر ودراسة الادب منذ الشباب وأصدرت كتاب « شعراء العصر » في جزأين ( ١٩١٠ - ١٩١٢ ) وأنا طالب في التعليم الثانوي . وكنت انشر آنذاك المقالات والقصائد في صحفنا الكبرى كاللواء والمؤيد والاهرام والجريدة . فلما سافرت الى باريس ومعي بضاعتي الادبية تفرغت في السنة الاولى ( ١٩١٣ - ١٩١٤ ) لدراسة الادب الفرنسي ووضع رسالة عن لامرتين . ثم اتجهت بعد ذلك الى التخصص في التاريخ . ومن حسن الحظ في ذلك الوقت ان الليسانس كانت تشمل ، الى جانب مادة اللاتينية ومواد التاريخ ، مادة اختيارية ، هي مادة الادب ، وان جامعة السربون كانت تضم اكبر اساتذة التاريخ والادب في اوروبا .

كنت في البداية استثقل التاريخ بسبب سوء استعدادي له بعد دراساتي العميقة في مصر . ولكني بعد ايغالي فيه ، وتصعيدي في الناحية المشرقة منه ، ناحية الفن والعلم الصحيح ، اصبحت مولها به . وكنت كلما ازددت ايغالا ، مع كر السنين ، ازددت به عشقا وكلفا .

والواقع ان الادب العربي احوج الاداب عموما الى مؤرخين ادباء يحققونه بعين النقد ، ويحققون اسماء البلاد الكثيرة الواقعة في الجزيرة العربية ، وهي التي يرد ذكرها في الشعر العربي . وقد نشرت مجلة « قافلة الزيت » بعض التحقيقات المفيدة في هذه الناحية وكنا نود السير فيها واستكمالها قدر المستطاع . وحسبنا ان نذكر ان الاجانب وحدهم انفردوا الى الان بأمثال هذه التحقيقات التاريخية الجغرافية الادبية بفضل دراساتهم على المكان ، ورحلاتهم العلمية في ارض الجزيرة . وخطر امثال هذه البحوث بالنسبة للشعر العربي ودراسته لا يخفى على احد . وهاكم مثلا اخر فيما يتعلق بتحقيق الشعر نفسه : حين درست البحتري وأصدرت عنه كتابا في سلسلة «الشوامخ» في سنة ١٩٤٦ ، تبين لي ان له نحو اربعة الاف بيت من الشعر لم يسبق نشرها ، وقد نشرت زبدتها في اثناء دراستي . كما تبين لي - وهذا في نظري اهم - ان شعره المطبوع ، وبعض ابيات من اشهر قصائده التي يتدارسها كبار الادباء والنقاد منذ قرون ، تتضمن اخطاء

كبيرة لم يلتفت اليها احد . كقوله في وصف البحيرة :

تفنى بساتينها القصوى برؤيتها      عن السحائب منحلا عز اليها

روى البارودي هذا البيت في مختاراته بهذا النص كما رواه جميع من تقدموه . مع ان كلمة ( برؤيتها ) هنا لا معنى لها وصحتها (بريتها) يريد ، ان ماء دجلة او البحيرة يغني البساتين القصوى في ارجاء البحيرة عن ماء السحاب . ومن هذا كثير .

وهذا مطران تبين لي ، اثناء مطالعة الصحف القديمة بحثا عن آثار شوقي ، ان له كنزا دفينا من النثر في بطون الصحف . وقد كنت بمعاصرتي لمطران اعلم ان له ايات من النثر الخالد ، ولكني كنت اجهل وجود ذلك النثر في غزارة البحر ، وكثافة الغاب ، وجمال السماء ذات النجوم . على انني لا ادعي اني استنفدت دراسة مطران ، لان بعض المصادر كجريدة « الاخبار » ، التي كان يصدرها الخازن صديق مطران والمحتفي باثاره ، لا يوجد منها الا اعداد قلية في المتناول. وهذه كارثة ادبية تاريخية يجب على مكتبات الشرق جميعا ان تعمل على الحد منها وتداركها .

ومعظم الصحف الاسبوعية واليومية التي نشر فيها شعر لشوقي بعضها لا وجود له او في حكم الذي لا وجود له ، وبعضها كالثوب الخلق ، وستختفي من الوجود بعد سنوات . وحسب القارىء ان يعلم ان جريدة « الجهاد » التي صدرت في اواخر سنة ١٩٣١ ، وكانت تنشر شعرا لشوقي ، تنقصها الاعداد الخمسة والاربعون الاولى .

وقد اضعنا نصف تراثنا الادبي القديم ، لانه كان يعتمد على الرواية وتسجيل الناسخين الجهلاء . ولكننا اليوم مع وجود المطابع والالات الكاتبة والات التصوير وعلم التحقيق ، سنضيع باهمالنا نصف التراث الادبي الحديث ، وهو تراث ضخم ، تراث النصف الاول من القرن الحالي ، تراثنا .

فلنعمل على انقاذه متضافرين .

محمد صبري

« قافلة الزيت » ـ الظهران

●

## علماء يبحثون عن وصفة للسعادة

الزوجات والازواج الذين يتشاجرون ويقذف بعضهم البعض الاخر بالصحون والزهريات وغيرها من الاواني البيتية يستمتعون بحياتهم عادة اكثر من هؤلاء الذين يكبتون غضبهم . هذا ما يقوله علماء النفس على الاقل . فقاذفو الاشياء نادرا ما يقصدون اصابة اهدافهم البشرية، والطبق المتحطم على الجدار هو ثمن بخس يدفعه المرء للتنفيس عن مشاعره المكبوتة . والى ذلك ، فان قذف الصحن او الزهرية يؤدي كثيرا من الاحيان الى انهاء الشجار فجأة ـ بالضحك والقهقهة .

توصل الى هذا الاستنتاج ، بصورة مشتركة ، عدد من فرق الابحاث الجامعية التي كانت تبحث عن وصفة للسعادة وتحاول اكتشاف اي نوع من انواع الناس يرجح ان يختبروا السعادة اكثر من غيرهم .

فقد قال فريقان علميان اميركيان ، احدهما من جامعة وزليان بولاية اوهايو والثاني من كلية الطب التابعة لجامعة كاليفورنيا ، ان الذكاء والسعادة لا يتفقان بالضرورة . ويقول هؤلاء العلماء ان الرجال والنساء الاذكياء هم عادة ذوو مزاج عالي التوتر ، ومع انهم يملكون ظاهريا اعظم طاقة للسعادة ، فانهم يغتمون بسهولة ، ويصعب عليهم التخلص من الكآبة .

لكن النساء عامة يملكن طاقة للسعادة اعظم من طاقة الرجال ، كما يعتقد الدكتور دايفد فلينك ، من فريق جامعة كاليفورنيا . وهو يضيف قائلا : « تظهر الدراسات التي اجريناها انه حين ترضي المراة رغبتها في ايجاد بيت وعائلة ، والعثور على زوج محب ، تصبح اكثر سعادة من الرجل » .

ويقول العلماء ان العمل المجتهد والمسؤولية هما العاملان الاكثر اهمية في جعل الرجل المتوسط سعيدا . ورجال الاعمال هم عادة اكثر سعادة من اساتذة المدارس او موظفي المكاتب .

وقام فريق من العلماء من جامعة ويسكونسين الاميركية باستفتاء الف شخص متقدم في السن ، وكاد يجمع هؤلاء على ان اسعد سنوات حياتهم كانت ما بين سن الخامسة والعشرين وسن الخامسة والاربعين . وحين قام فريق العلماء نفسه باستفتاء اشخاص تتراوح اعمارهم حاليا بين الخامسة والعشرين والخامسة والاربعين ، تبين للعلماء ان هؤلاء الاشخاص قلقون لان الوقت يمر سريعا وهم يشعرون انهم لم يحققوا اي هدف بعد .

والغريب في الامر ان عددا قليلا جدا من الذين شملهم الاستفتاء قالوا ان الطفولة كانت اسعد فترات حياتهم ، كما ان معظمهم لم يذكر بصورة خاصة انه استمتع بالسنوات الاخيرة من المراهقة .

ويشير العلماء الى نتيجة غريبة اخرى برزت من دراسة اجريت في فرنسا مؤخرا . فقد تبين بنتيجة هذا الاستفتاء الذي شمل الذكور والاناث ، ان واحدا بالمئة من الرجال فقط ، وخمسة بالمئة من النساء فقط ، يظنون ان الحب ضروري واساسي للسعادة . اما اكثرية الاشخاص الذين شملهم هذا الاستفتاء ، فقد اعربوا عن اقتناعهم التام بانهم يكونون اكثر سعادة لو انهم يملكون المزيد من المال ، وكان المال برأيهم هو الشرط الاول للسعادة ، والصحة الجيدة الشرط الثاني .

لكن العلماء يشددون ، في استنتاجاتهم النهائية الشاملة ، على انهم لم يجدوا ان الثروة ، وحدها ، كانت كافية لجلب الكثير من السعادة الى الناس . كما انهم يشددون على ان معظم الرجال والنساء السعداء الذين التقوهم اثناء الدراسات ، كانوا هؤلاء الذين يقومون باشق الاعمال ويتحملون اكبر المسؤوليات .

جريدة « لسان الحال »

●




●